وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا
(قرآن كريم)

هدية من رابطة العالم الاسلامي بمكة المكرمة

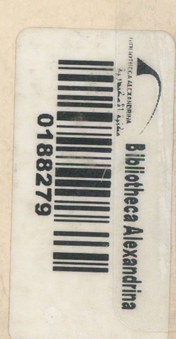
شرح العقيدة الواسطية
لشيخ الإسلام ابن تيمية

تأليف العلامة
محمد خليل هراس
المدرس بكلية أصول الدين

راجعه الأستاذ الكبير
عبد الرزاق عفيفي
رئيس أنصار السنة المحمدية

الطبعة الثالثة

محمد عبد المحسن الكتبي
صاحب المكتبة السلفية بالمدينة المنورة



شرح العقيدة الواسطية

لشيخ الإسلام ابن تيمية

تأليف العلامة

محمد خليل هراس

المدرس بكلية أصول الدين

راجعه الأستاذ الكبير

عبد الرازق عفيفي

رئيس أنصار السنة المحمدية

الطبعة الثالثة

الناشر

محمد عبد المحسن الكتبي

صاحب المكتبة السلفية بالمدينة المنورة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله قيوم السموات والأرضين وأصلى وأسلم على رسوله محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وبعد : فكتاب شرح العقيدة الواسطية لفضيلة الاستاذ الشيخ محمد خليل هراس من أنفس الشروح ، وأوضحها بيانا وأخصرها عبارة ، إلا أنه وقع فى الطبعة الأولى بعض أخطاء استدركت فى الطبعة الثانية بإرشاد سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتى المملكة العربية السعودية ، جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً وبذلك كانت هذه الطبعة ممتازة عن سابقتها . أسال الله أن ينفع بها وبشرحها المسلمين .

عبد الرزاق عفيفى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، نبينا محمد ، عبد الله ورسوله وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

(أما بعد) فلما كانت العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من أجمع ما كتب فى عقيدة أهل السنة والجماعة مع اختصار فى اللفظة ودقة فى العبارة ، وكانت تحتاج فى كثير من مواضعها إلى شرح يجلى غوامضها ويزيح الستار عن مكنون جواهرها ، ويكون مع ذلك شرحاً بعيداً عن الإسهاب والتطويل والإملال بكثرة النقول حتى يلائم مدارك الناشئين ويعطيهم زبدة الموضوع فى سهولة ويسر .

فقد استخرت الله تبارك وتعالى ، وأقدمت على هذا العمل رغم كثرة الشواغل وزحمة الصوارف ، سائلا الله عز وجل أن ينفع به كل من قرأه وأن يجعله خالصاً لوجهه إنه قريب مجيب .

محمد خليل هراس

بسم الله الرحمن الرحيم

اختلفت العلماء فى البسملة ، هل هى آية من كل سورة افتتحت بها ،أو هى آية مستقلة أنزلت ، للفصل بها بين السور ، والتبرك بالابتداء بها ، والمختار القول الثانى .

واتفقوا على أنها جزء آيةمن سورة النمل وعلى تركها فى أول سورة براءة لأنها جعلت هى والأنفال كسورة واحدة .

والباءفى بسم الاستعانة ، وهى متعلقة بمحذوف قدره بعضهم فعلا وقدره بعضهم اسماً ، والقولان متقاربان وبكل ورد القرآن قال تعالى (اقرأ باسم ربك) وقال (باسم الله مجريها) .

ويحسن جعل المقدر متأخراً ، لأن اسم أحق بالتقديم ولأن تقديم الجار والمجرور يفيد اختصاص الاسم الكريم بكونه متبركاً به ، والاسم هو اللفظ الموضوع لمعنى تعييناً له أو تمييزاً .

واختلف فى أصل اشتقاقه ، فقيل إنه من السمة بمعنى العلامة وقيل من السمو وهو المختار وهمزته همزة وصل ، وليس الاسم نفس المسمى كما زعم بعضهم ، فإن الاسم هو اللفظ الدال ، والمسمى هو المعنى المدلول عليه بذلك الاسم .

وليس هو كذلك نفس التسمية فإنها فعل المسمى ، يقال سميت ولدى محمداً مثلا .

وقول بعضهم إن لفظ الاسم هنا مقحم لأن الاستعانة إنما تكون

بالله عز وجل لا باسمه ، ليس بشيء ، لأن المراد ذكر الاسم الكريم باللسان كما فى قوله (سبح اسم ربك الأعلى) أى سبحه ناطقاً باسم ربك متكلماً به ، فالمراد التبرك بالابتداء بذكر اسمه تعالى - واسم الجلالة ، قيل إنه اسم جامد غير مشتق ، لأن الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها ، واسمه تعالى قديم والقديم لا مادة له ، فهو كسائر الأعلام المحضة التى لا تتضمن صفات تقوم بمسمياتها .

والصحيح أنه مشتق ، واختلف فى مبدأ اشتقاقه ، فقيل من أَلَه يَأْلَهُ أُلوهَة وإلاهة وأُلوهِية . بمعنى عبد عبادة ، وقيل من أله بكسر اللام يأله بفتحها ألها إذا تحير ، والصحيح الأول ، فهو إله بمعنى مألوه أى معبود ، ولهذا قال ابن عباس رضى الله عنهما: الله ذو الإلهية والعبودية على خلقه أجمعين ، وعلى القول بالاشتقاق يكون وصفاً فى الأصل ، ولكن غلبت عليه العلمية فتجرى عليه بقية الأسماء أخباراً وأوصافاً ، يقال : الله رحمن رحيم سميع عليم ، كما يقال : الله الرحمن الرحيم الخ .

والرحمن الرحيم اسمان كريمان من أسمائه الحسنى دالان على اتصافه تعالى بصفة الرحمة ، وهى صفة حقيقية له سبحانه على ما يليق بجلاله ولا يجوز القول بأن المراد بها لازمها كإرادة الإحسان ونحوه كما يزعم المعطلة ، وسيأتى مزيد بيان لذلك إن شاء الله .

واختلفت فى الجمع بينهما فقيل المراد بالرحمن الذى وسعت رحمته

كل شيء فى الدنيا ، لأن صيغة فعلان تدل على الامتلاء والكثرة ، والرحيم الذى يختص برحمته المؤمنين فى الآخرة وقيل العكس .

وقد ذهب العلامة ابن القيم رحمه الله إلى أن الرحمن دال على الصفة القائمة بالذات ، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم ، ولهذا لم يجيء الاسم الرحمن متعدياً فى القرآن ، قال تعالى (وكان بالمؤمنين رحيما) ولم يقل رحماناً ، وهذا أحسن ماقيل فى الفرق بينهما .

وروى عن ابن عباس أنه قال : هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر ، ومنع بعضهم كون الرحمن فى البسملة نعتاً لاسم الجلالة لأنه علم آخر لله لايطلق على غيره والأعلام لاينعت بها .

والصحيح أنه نعت له باعتبار مافيه من معنى الوصفية فالرحمن اسمه تعالى ووصفه ولا تنافى اسميته وصفيته ، فمن حيث هو صفة جرى تابعاً على اسم الله ، ومن حيث هو اسم ورد فى القرآن غير تابع بل ورود الاسم العلم كقوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) .

(الحمد لله) روى عن النبى ﷺ أنه قال « كل كلام لايبدأ فيه بحمد الله و الصلاة علىّ فهو أقطع أبتر ممحوق البركة » وورد مثل ذلك فى البسملة ولهذا جمع المؤلف بينهما عملا بالروايتين ولا تعارض بينهما فإن الابتداء قسمان حقيقى وإضافى والحمد ضد الذم ، يقال حمدت الرجل أحمده حمداً ، ومحمداً ومحمدة فهو محمود وحميد ، ويقال حمد الله بالتشديد أثنى عليه المرة بعد الأخرى وقال الحمد لله .

والحمد هو الثناء باللسان على الجميل الاختيارى ، نعمة كان أو غيرها ، يقال حمدت الرجل على أنعامه وحمدته على شجاعته ، وإما الشكر فعلى النعمة خاصة ويكون بالقلب واللسان والجوارح . قال الشاعر:

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ولسانى والضمير المحجبا

وعلى هذا فبين الحمد والشكر عموم وخصوص من وجه ، يجتمعان فى الثناء باللسان على النعمة ، وينفرد الحمد فى الثناء باللسان على ماليس بنعمة من الجميل الاختيارى ، وينفرد الشكر بالثناء بالقلب والجوارح على خصوص النعمة . فالحمد أعم متعلقاً وأخص آلة والشكر بالعكس .

وأما الفرق بين الحمد والمدح فقد قال ابن القيم إن الحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه فلابد فيه من اقتران الإرادة بالخبر بخلاف المدح فإنه إخبار مجرد ، ولذلك كان المدح أوسع تناولا لأنه يكون للحى وللميت وللجماد أيضاً .

وأل فى الحمد للاستغراق ، ليتناول كل أفراد الحمد المحققة والمقدرة وقيل للجنس ومعناه أن الحمد الكامل ثابت لله ، وهذا يقتضى ثبوت كل ما يحمد عليه من صفات كماله ونعوت جماله ؛ إذ من عدم صفات الكمال فليس بمحمود على الإطلاق ، ولكن غايته أن يكون محموداً من كل وجه وبكل اعتبار بجميع أنواع الحمد إلا من حاز صفات الكمال جميعها .

الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق

الرسول فى اللغة هو من بعث برسالة : يقال أرسله بكذا ، إذا طلب إليه تأديته وتبليغه ، وجمعه رسل بسكون السين ، ورسل بضمها وفى لسان الشرع إنسان ذكر حر أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه ، فإن أوحى إليه ولم يؤمر بالتبليغ فهو نبى ، فكل رسول نبي ولا عكس فقد يكون نبياً غير رسول .

والمراد بالرسول المضاف إلى ضمير الرب هنا محمد ﷺ .

والهدى فى اللغة : البيان والدلالة كما فى قوله تعالى : (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) فإن المعنى بينا لهم ، وكما فى قوله (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً)

والهدى بهذا المعنى عام لجميع الناس ، ولهذا يوصف به القرآن كما فى قوله تعالى (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) ويوصف به الرسول ﷺ كما فى قوله تعالى (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) .

وقد يأتى الهدى بمعنى التوفيق والإلهام ، فيكون خاصاً بمن يشاء الله هدايته ، قال تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) ولهذا نفاه الله عن رسوله ، قال تعالى (إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) .

والمراد بالهدى هنا كل ماجاء به النبى ﷺ من الاخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع والعمل الصالح .

ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا

والدين يأتى لعدة معان ، منها الجزاء كما فى قوله تعالى (مالك يوم الدين) ومنه قولهم (كما يدين الفتى يدان) .

ومنها الخضوع والانقياد ، يقال : دان له بمعنى ذل وخضع ، ويقال دان الله بكذا أو على كذا بمعنى اتخذه ديناً يعبده به .

والمراد بالدين هنا جميع ما أرسل الله به رسول الله ﷺ من الأحكام والشرائع ، اعتقادية كانت أم قولية أم فعلية ، وإضافته إلى الحق من إضافة الموصوف إلى صفته ، أى الدين الحق ، والحق مصدر حق يحق إذا ثبت ووجب . فالمراد به الثابت الواقع ، ويقابله الباطل الذى لاحقيقة له .

اللام فى قوله ليظهره لام التعليل وهى متعلقة بأرسل ، وهو من الظهور بمعنى العلو والغلبة ، أى ليجعله عالياً على الأديان كلها بالحجة والبرهان . وأل فى الدين للجنس ، فيدخل فيه كل دين باطل ، وهو ماعدا الإسلام . والشهيد فعيل ، وهو مبالغة من شهد ، وهو إما من الشهادة بمعنى الإخبار والإعلام ، أو من الشهادة بمعنى الحضور والمعنى (وكفى بالله شهيدا) مخبراً بصدق رسوله أو حاضراً مطلعاً لا يغيب عنه شىء .

والمعنى الإجمالى لما تقدم أن جميع أوصاف الكمال ثابتة لله على أكمل الوجوه وأتمها .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له

ومما يحمد عليه سبحانه نعمه على عباده التى لايحصى أحد من الخلق عدها . وأعظمها إرساله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق رحمة للعالمين ، وبشرى للمتقين ، ليظهره على جميع الأديان بالحجة والبرهان ، والعز والتمكين والسلطان ، وكفى بالله شهيداً على صدق رسوله وحقيقة ماجاء به .

وشهادته سبحانه تكون بقوله وفعله وتأييده لرسوله بالنصر والمعجزات والبراهين المتنوعة على أن ماجاء به هو الحق المبين .

الشهادة : الإخبار بالشيء عن علم به واعتقاد لصحته وثبوته ، ولا تعتبر الشهادة إلا إذا كانت مصحوبة بالإقرار والإذعان وواطأ القلب عليها اللسان ، فإن الله قد كذب المنافقين فى قولهم (نشهد أنك لرسول الله) مع أنهم قالوا بألسنتهم .

ولا إله إلا الله هى كلمة التوحيد التى اتفقت عليها كلمة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، بل هى خلاصة دعواتهم وزبدة رسالاتهم ، وما من رسول منهم إلا جعلها مفتتح أمره وقطب رحاه ، كما قال نبينا ﷺ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها فقد عصموا من دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل » .

ودلالة هذه الكلمة على التوحيد باعتبار اشتمالها على النفى

إقراراً به وتوحيداً ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله

والإثبات المقتضى للحصر وهو أبلغ من الإثبات المجرد ، كقولنا الله واحد مثلا فهى تدل بصدرها على نفى الإلهية عما سوى الله تعالى ، وتدل بعجزها على إثبات الإلهية له وحده .

ولابد فيها من إضمار خبر تقديره لامعبود بحق موجود إلا الله ، وأما قوله وحده لاشريك له : فهو تأكيد لما دلت عليه كلمة التوحيد وقوله إقراراً به مصدر مؤكد لمعنى الفعل أشهد ، والمراد إقرار القلب واللسان .

وقوله توحيداً أى إخلاصاً لله عز وجل فى العبادة ، فالمراد به التوحيد الإرادى الطلبي المبنى على توحيد المعرفة والإثبات .

وجعل الشهادة للرسول ﷺ بالرسالة والعبودية ، مقرونة بالشهادة لله بالتوحيد الإشارة إلى أنه لابد من كل منهما ، فلا تغنى إحداهما عن الأخرى ، ولهذا قرن بينهما فى الأذان وفى التشهد . وقال بعضهم فى تفسير قوله تعالى (ورفعنا لك ذكرك) يعنى لا أذكر إلا ذكرت معى .

وإنما جمع له بين وصفى الرسالة والعبودية لأنهما أعلى مايوصف به العبد ، والعبادة هى الحكمة التى خلق الله الخلق لأجلها كما قال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) فكمال المخلوق فى تحقيق تلك الغاية ، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت

صلى الله عليه

درجته ، ولهذا ذكر الله نبيه بلقب العبد فى أسمى أحواله وأشرف مقاماته كالإسراء به وقيامه بالدعوة إلى الله والإيحاء إليه والتحدى بالذى أنزل عليه ، ونبه بوصف العبودية أيضاً إلى الرد على أهل الغلو الذين قد يتجاوزون بالرسول ﷺ قدره ويرفعونه إلى مرتبة الألوهية . كما يفعل ضلال الصوفية قبحهم الله ، وقد صح عنه ﷺ أنه قال «لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، وإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » ، والمقصود أن هذه الشهادة تتضمن اعتراف العبد بكمال عبوديته ﷺ لربه وكمال رسالته ، وأنه فاق جميع البشر فى كل خصلة كماله ، ولا تتم هذه الشهادة حتى يصدقه العبد فى كل ما أخبر به ، ويطيعه فى كل ما أمر به ، وينتهى عما نهى عنه .

الصلاة فى اللغة الدعاء ، قال تعالى « وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » ، وأصح ماقيل فى صلاة الله على رسوله هو ماذكره البخارى فى صحيحه عن أبى العالية قال : صلاة الله على رسوله ثناؤه عليه عند الملائكة .

والمشهور أن الصلاة من الملائكة الاستغفار كما فى الحديث الصحيح « والملائكة يصلون على أحدكم مادام فى مجلسه الذى فيه ، يقولون اللهم اغفر له اللهم ارحمه » ومن الآدميين التضرع والدعاء

وعلى آله وصحبه وسلم تسليما مزيداً . أما بعد فهذا اعتقاد

وآل الشخص هم من يمتون إليه بصلة وثيقة من قرابة ونحوها وآله ﷺ يراد بهم أحياناً من حرمت عليهم الصدقة وهم بنو هاشم وبنو المطلب ويراد بهم أحياناً كل من تبعه على دينه ، وأصل (آل) أهل ، أبدلت الهاء همزة فتوالت همزتان فقلبت الثانية منهما ألفاً ويصغر على أهيل أو أويل ، ولا يستعمل إلا فيما شرف غالباً فلا يقال آل الإسكاف وآل الحجام ، والمراد بالصحب أصحابه ﷺ وهم كل من لقيه حال حياته مؤمناً ومات على ذلك .

والسلام اسم مصدر من سلم تسليما عليه ، بمعنى طلب له السلامة من كل مكروه ، وهو اسم من أسمائه تعالى ، ومعناه البراءة والخلاص من النقائص والعيوب أو الذى يسلم على عباده المؤمنين فى الآخرة

ومزيداً صفة لتسليما وهو اسم مفعول من زاد المتعدى والتقدير مزيداً فيه (أما بعد) كلمة يؤتى بها للدلالة على الشروع فى المقصود ، وكان النبي ﷺ يستعملها كثيراً فى خطبه وكتبه . وتقديرها عند النحويين مهما يكن من شىء بعد . والإشارة بقوله (هذا) إلى ما تضمنه هذا المؤلف من العقائد الإيمانية التى أجملها فى قوله (وهو الإيمان بالله الخ) والاعتقاد مصدر اعتقد كذا إذا اتخذه عقيدة له ، بمعنى عقد عليه الضمير والقلب ودان لله به ، وأوصله من عقد الحبل ، ثم استعمل فى التصميم والاعتقاد الجازم .

الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة ، وهو الإيمان بالله

والفرقة بكسر الفاء الطائفة من الناس ، ووصفها بأنها الناجية المنصورة أخذاً من قوله عليه السلام (لا تزال طائفة من أمتى على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله) .

ومن قوله فى الحديث الآخر « ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلهم فى النار إلا واحدة ، وهى من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى » .

وقوله (أهل السنة والجماعة) بدل من الفرقة ، والمراد بالسنة الطريقة التى كان عليها رسول الله ﷺ وأصحابه قبل ظهور البدع والمقالات . والجماعة فى الأصل القوم المجتمعون ، والمراد بهم هنا سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين الذين اجتمعوا على الحق الصريح من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

هذه الأمور الستة هى أركان الإيمان فلا يتم إيمان أحد إلا إذا آمن بها جميعاً على الوجه الصحيح الذى دل عليه الكتاب والسنة ، فمن جحد شيئاً منها أو آمن به على غير هذا الوجه فقد كفر ، وقد ذكرت كلها فى حديث جبريل المشهور حين جاء إلى النبى ﷺ فى صورة أعرابى يسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان ، فقال

وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره .

« أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالبعث بعد الموت وبالقدر خيره وشره ، حلوه ومره من الله تعالى .

(والملائكة) جمع ملاك وأصله مألك من الألوكة وهى الرسالة وهم نوع من خلق الله عز وجل أسكنهم سماواته ، ووكلهم بشئون خلقه ووصفهم فى كتابه بأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وأنه يسبحون له بالليل والنهار لا يفترون . فيجب علينا الإيمان بما ورد فى حقهم من صفات وأعمال فى الكتاب والسنة ، والإمساك عما وراء ذلك ، فإن هذا من شئون الغيب التى لا نعلم منها إلا ما علمنا الله ورسوله .

والكتب جمع كتاب ، وهو من الكتب بمعنى الجمع والضم ، والمراد بها الكتب المنزلة من السماء على الرسل عليهم الصلاة والسلام . والمعلوم لنا منها صحف إبراهيم والتوراة التى أنزلت على موسى فى الألواح والإنجيل الذى أنزل على عيسى ، والزبور الذى أنزل على داود ، والقرآن الكريم الذى هو آخرها نزولا ، وهو المصدق لها والمهيمن عليها ، وما عداها يجب الإيمان به إجمالا .

والرسل جمع رسول ، وقد تقدم أنه من أوحى الله إليه بشرع وأمره بتبليغه ، وعلينا أن نؤمن تفصيلا بمن سمى الله فى كتابه منهم

وهم خمسة وعشرون ، ذكرهم الشاعر فى قوله :

فى تلك حجتنا منهم ثمانية ... من بعد عشر ويبقى سبعة وهم
إدريس هود شعيب صالح وكذا ... ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

وأما من عدا هؤلاء من الرسل والأنبياء فنؤمن بهم إجمالا على معنى الاعتقاد بنبوتهم ورسالاتهم دون أن نكلف أنفسنا البحث عن عدتهم وأسمائهم ، فإن ذلك مما اختص الله بعلمه ، قال تعالى (ورسلا قد قصصنا عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك) .

ويجب الإيمان بأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به على ما أمرهم الله عز وجل ، وبينوه بياناً لا يسع أحداً ممن أرسلوا إليه جهله ، وأنهم معصومون من الكذب والخيانة ، والكتمان والبلادة ، وأن أفضلهم أولو العزم ، والمشهور أنهم محمد وإبراهيم وموسى وعيسى ونوح ، لأنهم ذكروا معاً فى قوله تعالى (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم) وقوله (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)

والبعث فى الأصل الإثارة والتحريك ، والمراد به فى لسان الشرع إخراج الموتى من قبورهم أحياء يوم القيامة لفصل القضاء بينهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، ويجب الإيمان بالبعث على الصفة التى بينها الله فى كتابه ، وهو أنه جمع

ما تحلل من أجزاء الأجساد التى كانت فى الدنيا وإنشاؤها خلقاً جديداً وإعادة الحياة إليها ، ومنكر البعث الجثمانى كالفلاسفة والنصارى كفار ، وأما من أقر به ولكنه زعم أن الله يبعث الأرواح فى أجسام غير الأجسام التى كانت فى الدنيا فهو مبتدع وفاسق .

وأما القدر فهو فى الأصل مصدر ، تقول قدرت الشىء بفتح الدال وتخفيفها ، أقدره بكسرها قدراً وقدراً إذا أحطت بمقداره والمراد به فى لسان الشرع أن الله عز وجل علم مقادير الأشياء وأزمانها أزلا ، ثم أوجدها بقدرته ومشيئته على وفق ما علمه منها ، وأنه كتبها فى اللوح قبل إحداثها ، كما فى الحديث « أول ما خلق الله القلم ، فقال له اكتب ، قال وما أكتب ؟ قال اكتب كل ما هو كائن » وقال تعالى (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها) .

وقوله (ومن الإيمان بالله الخ) هذا شروع فى التفصيل بعد الإجمال ومن هنا للتبعيض ، والمعنى : ومن جملة إيمان أهل السنة والجماعة بالأصل الأول الذى هو أعظم الأصول وأساسها ، وهو الإيمان بالله أنهم يؤمنون بما وصف به نفسه الخ .

وقوله (من غير تحريف) متعلق بالإيمان قبله يعنى أنهم يؤمنون بالصفات الإلهية على هذا الوجه الخالى من كل هذه المعانى الباطلة

فى كتابه ، وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل .

إثباتاً بلا تمثيل ، وتنزيهاً بلا تعطيل .

والتحريف فى الأصل مأخوذ من قولهم : حرفت الشىء عن وجهه حرفاً ، من باب ضرب إذا أملته وغيرته والتشديد للمبالغة.

وتحريف الكلام إمالته عن المعنى المتبادر منه إلى معنى آخر لا يدل عليه اللفظ إلا باحتمال مرجوح ، فلا بد فيه من قرينة تبين أنه المراد .

وأما التعطيل فهو مأخوذ من العطل الذى هو الخلو والفراغ والترك ، ومنه قوله تعالى (وبئر معطلة) أى أهملها أهلها وتركوا وردها ، والمراد به هنا نفى الصفات الإلهية ، وإنكار قيامها بذاته تعالى . فالفرق بين التحريف والتعطيل أن التعطيل نفى المعنى الحق الذى دل عليه الكتاب والسنة ، وأما التحريف فهو تفسير النصوص بالمعانى الباطلة التى لا تدل عليها .

والنسبة بينهما العموم والخصوص المطلق ، فإن التعطيل أعم مطلقاً من التحريف بمعنى أنه كلما وجد التحريف وجد التعطيل دون العكس ، وبذلك يوجدان معاً فيمن أثبت المعنى الباطل ونفى المعنى الحق ، ويوجد التعطيل بدون التحريف فيمن نفى الصفات الواردة

بل يؤمنون بأن الله سبحانه (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) .

فى الكتاب والسنة وزعم أن ظاهرها غير مراد ولكنه لم يعين لها معنى آخر وهو مايسمونه بالتفويض .

ومن الخطأ القول بأن هذا هو مذهب السلف كما نسب ذلك إليهم المتأخرون من الأشاعرة وغيرهم ، فإن السلف لم يكونوا يفوضون فى علم المعنى ولا كانوا يقرأون كلاماً لايفهمون معناه ، بل كانوا يفهمون معانى النصوص من الكتاب والسنة ، ويثبتونها لله عز وجل ، ثم يفوضون فيما وراء ذلك من كنه الصفات أو كيفياتها كما قال مالك حين سئل عن كيفية استوائه تعالى على العرش : « الاستواء معلوم والكيف مجهول » .

وأما قوله (ومن غير تكييف ولاتمثيل) فالفرق بينهما أن التكييف أن يعتقد أن صفاته تعالى على كيفية كذا ، أو يسأل عنها بكيف .

وأما التمثيل فهو اعتقاد أنها مثل صفات المخلوقين ، وليس المراد من قوله من غير تكييف أنهم ينفون الكيف مطلقاً ، فإن كل شيء لابد أن يكون على كيفية ما ، ولكن المراد أنهم ينفون علمهم بالكيف إذ لايعلم كيفية ذاته وصفاته إلا هو سبحانه .

قوله (ليس كمثله) هذه الآية المحكمة من كتاب الله عز وجل هى دستور أهل السنة والجماعة فى باب الصفات فإن الله عز وجل قد جمع فيها بين

فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون فى أسماء الله وآياته ، ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه .

النفى والإثبات ، فنفى عن نفسه المثل وأثبت لنفسه سمعاً وبصراً . فدل هذا على أن المذهب الحق ليس هو نفى الصفات مطلقاً كما هو شأن المعطلة ولا إثباتها مطلقاً ، كما هو شأن الممثلة ، بل إثباتها بلا تمثيل . وقد اختلف فى إعراب (ليس كمثله شىء) على وجوه أصحها أن الكاف صلة زيدت للتأكيد كما فى قول الشاعر :

ليس كمثل الفتى زهير   خلق يوازيه فى الفضائل

وقوله (فلا ينفون عنه الخ) تفريع على ما قبله ، فإنهم إذا كانوا يؤمنون بالله على هذا الوجه فلا ينفون ولا يحرفون ، ولا يكيفون ولا يمثلون .

والمواضع جمع موضع والمراد بها المعانى التى يجب تنزيل الكلام عليها لأنها هى المتبادرة منه عند الإطلاق فهم لا يعدلون به عنها .

وأما قوله (ولا يلحدون فى أسماء الله وآياته) فقد قال العلامة ابن القيم رحمه الله : والإلحاد فى أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها ، مأخوذ من الميل كما يدل عليه مادة (ل ح د) فمنه اللحد وهو الشق فى جانب القبر الذى قد مال

عن الوسط ، ومنه الملحد فى الدين (المائل عن الحق المدخل فيه ماليس منه) ا هـ .

فالإلحاد فيها إما أن يكون بجحدها وإنكارها بالكلية ، وإما بجحد معانيها وتعطيلها ، وإما بتحريفها عن الصواب وإخراجها عن الحق بالتأويلات الفاسدة ، وإما بجعلها أسماء لبعض المبتدعات كإلحاد أهل الاتحاد .

وخلاصة ماتقدم أن السلف رضى الله عنهم يؤمنون بكل ماأخبر الله به عن نفسه فى كتابه وبكل ماأخبر به عنه رسوله ﷺ إيماناً سالماً من التحريف والتعطيل ، ومن التكييف والتمثيل ويجعلون الكلام فى ذات البارى وصفاته باباً واحداً ، فإن الكلام فى الصفات فرع الكلام فى الذات يحتذى فيه حذوه ، فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات تكييف فكذلك إثبات الصفات ، وقد يعبرون عن ذلك بقولهم (تمر كما جاءت بلا تأويل) ومن لم يفهم كلامهم ظن أن غرضهم بهذه العبارة هو قراءة اللفظ دون التعرض للمعنى وهو باطل ، فإن المراد بالتأويل المنفى هنا هو حقيقة المعنى وكنهه وكيفيته .

قال الإمام أحمد رحمه الله : « لايوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله لايتجاوز القرآن والحديث » .

وقال نعيم بن حماد شيخ البخارى : « من شبه الله بخلقه كفر ومن

لأنه سبحانه لاسمى له ولا كفء له ولا ند له .

جحد ما وصف الله به نفسه كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله تشبيه ولا تمثيل » .

قوله (لأنه سبحانه لاسمى له الخ) تعليل لقوله فيما تقدم إخباراً عن أهل السنة والجماعة لايكيفون ولا يمثلون .

ومعنى (لاسمى له) أى لا نظير له يستحق مثل اسمه ، أو لامسامى له يساميه ، وقد دل على نفيه قوله تعالى فى سورة مريم (هل تعلم له سميا) فإن الاستفهام هنا إنكارى معناه النفى .

وليس المراد من نفى السمى أن غيره لايسمى بمثل أسمائه ، فإنه هناك أسماء مشتركة بينه وبين خلقه ، ولكن المقصود أن هذه الأسماء إذا سمى الله بها كان معناها مختصاً به لا يشركه فيه غيره ، فإن الاشتراك إنما هو فى مفهوم الاسم الكلى ، وهذا لاوجود له إلا فى الذهن ، وأما فى الخارج فلايكون المعنى إلا جزئياً مختصاً ، وذلك بحسب مايضاف إليه ، فإن أضيف إلى الرب كان مختصاً به لايشاركه فيه العبد ، وإن أضيف إلى العبد كان مختصاً به لايشاركه فيه الرب .

وأما الكفء فهو المكافىء المساوى ، وقد دل على نفيه قوله تعالى (ولم يكن له كفواً أحد) .

وأما الند فمعناه المساوى المناوىء قال تعالى (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) .

ولايقاس بخلقه سبحانه وتعالى .

وأما قوله (ولا يقاس بخلقه) فالمقصود به أنه لا يجوز استعمال شيء من الأقيسة التى تقتضى المماثلة والمساواة بين المقيس والمقيس عليه فى الشئون الإلهية .

وذلك مثل قياس التمثيل الذى يعرفه علماء الأصول بأنه إلحاق فرع بأصل فى حكم الجامع ، كإلحاق النبيذ بالخمر فى الحرمة لاشتراكهما فى علة الحكم وهى الإسكار .

فقياس التمثيل مبنى على وجود مماثلة بين الفرع والأصل ، والله عز وجل لايجوز أن يمثل بشىء من خلقه .

ومثل قياس الشمول المعروف عند المناطقة بأنه الاستدلال بكلى على جزئى بواسطة اندراج ذلك الجزئى مع غيره تحت هذا الكلى . فهذا القياس مبنى على استواء الأفراد المندرجة تحت هذا الكلى ، ولذلك يحكم على كل منها بما حكم به عليه .

ومعلوم أنه لامساواة بين الله عز وجل وبين شىء من خلقه وإنما يستعمل فى حقه تعالى قياس الأولى ومضمونه أن كل كمال ثبت للمخلوق وأمكن أن يتصف به الخالق ، فالخالق أولى به من المخلوق ، وكل نقص تنزه عنه المخلوق فالخالق أحق بالتنزه عنه .

وكذلك قاعدة الكمال التى تقول : إنه إذا قدر اثنان أحدهما موصوف بصفة كمال والآخر يمتنع عليه أن يتصف بتلك الصفة كان

فإنه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثاً من خلقه ، ثم رسله صادقون مصدقون بخلاف الذين يقولون عليه مالا يعلمون)

الأول أكمل من الثانى ، فيجب إثبات مثل تلك الصفة لله مادام وجودها كمالا وعدمها نقصاً .

قوله (فإنه أعلم بنفسه وبغيره - إلى قوله - ثم رسله صادقون مصدقون) تعليل لصحة مذهب السلف فى الإيمان بجميع الصفات الواردة فى الكتاب والسنة . فإنه إذا كان الله عز وجل أعلم بنفسه وبغيره ، وكان أصدق قولا وأحسن حديثاً ، وكان رسله عليهم الصلاة والسلام صادقين فى كل مايخبرون به عنه ، معصومين من الكذب عليه والإخبار عنه بما يخالف الواقع . وجب التعويل إذاً فى باب الصفات نفياً وإثباتاً على ماقاله الله وقاله رسوله الذى هو أعلم خلقه به ، وأن لايترك ذلك إلى قول من يفترون على الله الكذب ويقولون عليه مالا يعلمون .

وبيان ذلك أن الكلام إنما تقصر دلالته على المعانى المرادة منه لأحد ثلاثة أسباب ، إما لجهل المتكلم وعدم علمه بما يتكلم به ، وإما لعدم فصاحته وقدرته على البيان ، وإما لكذبه وغشه وتدليسه ونصوص الكتاب والسنة بريئة من هذه الأمور الثلاثة من كل وجه فكلام الله وكلام رسوله فى غاية الوضوح والبيان ، كما أنه المثل الأعلى فى الصدق والمطابقة للواقع لصدوره عن كمال العلم بالنسبة

ولهذا قال (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين

الخارجية وهو كذلك صادر عن تمام النصح والشفقة ، والحرص على هداية الخلق وإرشادهم .

فقد اجتمعت له الأمور الثلاثة التى هى عناصر الدلالة والإفهام على أكمل وجه . فالرسول ﷺ أعلم الخلق بما يريد إخبارهم به ، وهو أقدرهم على بيان ذلك ، والإفصاح عنه . وهو أحرصهم على هداية الخلق وأشدهم إرادة لذلك ، فلا يمكن أن يقع فى كلامه شىء من النقص والقصور بخلاف كلام غيره فإنه لا يخلو من نقص فى أحد هذه الأمور أو جميعها ، فلا يصح أن يعدل بكلامه كلام غيره فضلا عن أن يعدل عنه إلى كلام غيره ، فإن هذا هو غاية الضلال ومنتهى الخذلان .

قوله (ولهذا قال الخ) تعليل لما تقدم من كون كلام الله وكلام رسوله أكمل صدقاً وأتم بياناً ونصحاً ، وأبعد عن العيوب والآفات من كلام كل أحد .

(وسبحان) اسم مصدر من التسبيح ، الذى هو التنزيه والإبعاد عن السوء ، وأصله من السبح الذى هو السرعة والانطلاق والإبعاد ، ومنه فرس سبوح إذا كانت شديدة العدو .

وإضافة الرب إلى العزة من إضافة الموصوف إلى صفته ، وهو بدل من الرب قبله ، فهو سبحانه ينزه نفسه عما ينسبه إليه المشركون

والحمد لله رب العالمين) فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل، وسلم على المرسلين لسلامة ماقالوه من النقص والعيب . وهو قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفى والإثبات .

من اتخاذ الصاحبة والولد وعن كل نقص وعيب .

ثم يسلم على رسله عليهم الصلاة والسلام بعد ذلك للإشارة إلى أنه كما يجب تنزيه الله عز وجل وإبعاده عن كل شائبة نقص وعيب ، فيجب اعتقاد سلامة الرسل فى أقوالهم وأفعالهم من كل عيب كذلك فلا يكذبون على الله ولايشركون به ولايغشون أممهم ولا يقولون على الله إلا الحق .

قوله (والحمد لله رب العالمين) ثناء منه سبحانه على نفسه بماله من نعوت الكمال وأوصاف الجلال وحميد الفعال ، وقد تقدم الكلام على معنى الحمد فأغنى عن إعادته .

لما بين فيما سبق أن أهل السنة والجماعة يصفون الله عز وجل بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ، ولم يكن ذلك كله إثباتاً ولا كله نفياً نبه على ذلك بقوله (وهو سبحانه قد جمع الخ) .

واعلم أن كلا من النفى والإثبات فى الأسماء والصفات مجمل ومفصل . أما الإجمال فى النفى : فهو أن ينفى عن الله عز وجل كل مايضاد كماله من أنواع العيوب والنقائص مثل قوله تعالى (ليس كمثله شىء) (هل تعلم له سميا) (سبحان الله عما يصفون) .

وأما التفصيل فى النفى فهو أن ينزه الله عن كل واحد من هذه العيوب والنقائص بخصوصه ، فينزه عن الوالد والولد والشريك والصاحبة والند والضد والجهل والعجز والضلال والنسيان والسنة والنوم والعبث والباطل الخ .

ولكن ليس فى الكتاب ولا فى السنة نفى محض ، فإن النفى الصرف لامدح فيه ، وإنمايراد بكل نفى فيهما إثبات مايضاده من الكمال ، فنفى الشريك والند لإثبات كمال عظمته وتفرده بصفات الكمال ، ونفى العجز لإثبات كمال قدرته ، ونفى الجهل لإثبات سعة علمه وإحاطته ، ونفى الظلم لإثبات كمال عدله ، ونفى العبث لإثبات كمال حكمته ، ونفى السنة والنوم والموت لإثبات كمال حياته وقيوميته وهكذا ، ولهذا كان النفى فى الكتاب والسنة إنما يأتى مجملا فى أكثر أحواله بخلاف الإثبات ، فإن التفصيل فيه أكثر من الإجمال لأنه مقصود لذاته .

وأما الإجمال فى الإثبات ، فمثل إثبات الكمال المطلق ، والحمد المطلق والمجد المطلق ونحو ذلك ، كما يشير إليه مثل قوله تعالى (الحمد لله رب العالمين) (ولله المثل الأعلى) .

وأما التفصيل فى الإثبات فهو متناول لكل اسم أو صفة وردت فى الكتاب والسنة ، وهو من الكثير بحيث لايمكن لأحد أن يحصيه

فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

فإن منها مااختص الله عز وجل بعلمه كما قال عليه الصلاة والسلام « سبحانك لانحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » وفى حديث دعاء الكرب « أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك » .

قوله (فلا عدول الخ) هذا مترتب على ماتقدم من بيان أن ماجاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام هو الحق الذى يجب اتباعه ولا يصح العدول عنه ، وقد علل ذلك بأنه الصراط المستقيم ، يعنى الطريق السوى القاصد الذى لاعوج فيه ولا انحراف .

والصراط المستقيم لايكون إلا واحداً من زاغ عنه أو انحراف وقع فى طريق من طرق الضلال والجور كما قال تعالى (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) والصراط المستقيم هو طريق الأمة الوسط الواقع بين طرفى الإفراط والتفريط ولهذا أمرنا الله عز وجل وعلمنا أن نسأله أن يهدينا هذا الصراط المستقيم فى كل ركعة من الصلاة ، أى يلهمنا ويوفقنا لسلوكه واتباعه فإنه صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين

وقد دخل فى هذه الجملة ماوصف الله به نفسه فى سورة الإخلاص التى تعدل ثلث القرآن .

والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) .

قوله (وقد دخل الخ) شروع فى إيراد النصوص من الكتاب والسنة المتضمنة لما يجب الإيمان به من الأسماء والصفات فى النفى والإثبات

وابتدأ بتلك السورة العظيمة لأنها اشتملت من ذلك على مالم يشتمل عليه غيرها . ولهذا سميت سورة الإخلاص لتجريدها التوحيد من شوائب الشرك والوثنية .

روى الإمام أحمد فى مسنده عن أبى بن كعب رضى الله عنه فى سبب نزولها أن المشركين قالوا يا محمد أنسب لنا ربك ، فأنزل الله تبارك وتعالى (قل هو الله أحد الله الصمد الخ السورة) .

وقد ثبت فى الصحيح أنها تعدل ثلث القرآن . وقد اختلف العلماء فى تأويل ذلك على أقوال أقربها[1] : مانقله شيخ الإسلام عن أبى العباس ، وحاصله أن القرآن الكريم اشتمل على ثلاثة مقاصد أساسية . أولها الأوامر والنواهى المتضمنة للأحكام والشرائع العملية التى هى موضوع علم الفقه والأخلاق .

ثانيها : القصص والأخبار المتضمنة لأحوال الرسل عليهم الصلاة والسلام مع أممهم ، وأنواع الهلاك التى حاقت بالمكذبين لهم وأحوال الوعد والوعيد وتفاصيل الثواب والعقاب .

---

(١) انظر ٣٥ ، ٦٢ من كتاب جواب أهل العلم والإيمان ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، طبع المطبعة السلفية .

حيث يقول (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) .

ثالثها علم التوحيد وما يجب على العباد من معرفة الله بأسمائه وصفاته وهذا هو أشرف الثلاثة .

ولما كانت سورة الإخلاص قد تضمنت أصول هذا العلم ، واشتملت عليه إجمالا صح أن يقال إنها تعدل ثلث القرآن .

وأما كيف اشتملت هذه السورة على علوم التوحيد كلها وتضمنت الأصول التي هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي فنقول :

إن قوله تعالى (الله أحد) دلت على نفي الشريك من كل وجه في الذات أو في الصفات أو في الأفعال ، كما دلت على تفرده سبحانه بالعظمة والكمال والمجد والجلال والكبرياء ، ولهذا لا يطلق لفظ أحد في الإثبات إلا على الله عز وجل ، وهو أبلغ من واحد .

وقوله (الله الصمد) قد فسرها ابن عباس رضي الله عنه بقوله « السيد الذي كمل في سؤدده ، والشريف الذي كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عظمته ، والحليم الذي قد كمل في حلمه ، والغني الذي قد كمل في غناه ، والجبار الذي قد كمل في جبروته ، والعليم الذي قد كمل في علمه ، والحكيم الذي قد كمل في حكمه ، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد ، وهو الله عز وجل هذه صفته لا تنبغي إلا له ليس له كفؤ وليس كمثله شيء .

وما وصف به نفسه فى أعظم آية فى كتابه حيث يقول :

وقد فسر الصمد أيضاً بأنه الذى لاجوف له وبأنه الذى تصمد إليه الخليقة كلها وتقصده فى جميع حاجاتها ومهماتها .

فإثبات الأحدية لله تتضمن نفى المشاركة والمماثلة ، وإثبات الصمدية بكل معانيها المتقدمة تتضمن إثبات جميع تفاصيل الأسماء الحسنى والصفات العلى ، وهذا هو توحيد الإثبات .

وأما النوع الثانى وهو توحيد التنزيه فيؤخذ من قوله تعالى (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) كما يؤخذ إجمالا من قوله (الله أحد) أى لم يتفرع عنه شىء ولم يتفرع هو عن شىء ، وليس له مكافىء ولا مماثل ولا نظير .

فانظر كيف تضمنت هذه السورة توحيد الاعتقاد والمعرفة وما يجب إثباته للرب تعالى من الأحدية المنافية لمطلق المشاركة والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال الذى لا يلحقه نقص بوجه من الوجوه ، ونفى الولد والوالد الذى هو من لوازم غناه وصمديته وأحديته ، ثم نفى الكفء المتضمن لنفى التشبيه والتمثيل والنظير لحق لسورة تضمنت هذه المعارف كلها أن تعدل ثلث القرآن .

روى مسلم فى صحيحه عن أبى بن كعب أن النبى ﷺ سأله : أى آية فى كتاب الله أعظم ؟ قال الله ورسوله أعلم ، فرددها مراراً ثم قال أبى : آية الكرسى فوضع النبى يده على كتفه وقال : ليهنك

هذا العلم أبا المنذر — وفى رواية عند أحمد : « والذى نفسى بيده إن لها لساناً وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش » .

ولا غرو فقد اشتملت هذه الآية العظيمة من أسماء الرب وصفاته على مالم تشتمل عليه آية أخرى .

فقد أخبر الله فيها عن نفسه بأنه المتوحد فى إلهيته الذى لاتنبغى العبادة بجميع أنواعها وسائر صورها إلا له .

ثم أردف قضية التوحيد بمايشهد لها من ذكر خصائصه وصفاته الكاملة ، فذكر أنه الحى الذى له كمال الحياة لأن حياته من لوازم ذاته فهى أزلية أبدية ، وكمال حياته يستلزم ثبوت جميع صفات الكمال الذاتية له من العزة والقدرة والعلم والحكمة والسمع والبصر والإرادة والمشيئة وغيرها ، إذ لا يتخلف شىء منها إلا لنقص فى الحياة . فالكمال فى الحياة يتبعه الكمال فى سائر الصفات اللازمة للحى . ثم قرن ذلك باسمه القيوم ومعناه الذى قام بنفسه واستغنى عن جميع خلقه غنى مطلقاً لا تشوبه شائبة حاجة أصلا لأنه غنى ذاتى ، وبه قامت الموجودات كلها ، فهى فقيرة إليه فقراً ذاتياً بحيث لاتستغنى عنه لحظة ، فهو الذى ابتدأ إيجادها على هذا النحو من الإحكام والإتقان وهو الذى يدبر أمورها ويمدها بكل ماتحتاج إليه فى بقائها . وفى بلوغ الكمال الذى قدره لها ، فهذا الاسم

له مافى السموات ومافى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه

متضمن لجميع صفات الكمال الفعلية ، كما أن اسمه الحى متضمن لجميع صفات الكمال الذاتية ؛ ولهذا ورد أن الحى القيوم هما اسم الله الأعظم الذى إذا سئل به أعطى وإذا دعى به أجاب .

ثم أعقب ذلك بما يدل على كمال حياته وقيوميته فقال (لاتأخذه) أى لاتغلبه (سنة) أى نعاس ولانوم ، فإن ذلك ينافى القيومية ، إذ النوم أخو الموت . ولهذا كان أهل الجنة لاينامون ، ثم ذكر عموم ملكه لجميع العوالم العلوية والسفلية ، وأنها جميعاً تحت قهره وسلطانه فقال (له مافى السموات وما فى الأرض) .

ثم أردف ذلك بما يدل على تمام ملكه ، وهو أن الشفاعة كلها له فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه .

وقد تضمن هذا النفى والاستثناء أمرين ؛ أحدهما : إثبات الشفاعة الصحيحة ، وهى أنها تقع بإذنه سبحانه لمن يرضى قوله وعمله . والثانى : إبطال الشفاعة الشركية التى كان يعتقدها المشركون لأصنامهم وهى أنها تشفع لهم بغير إذن الله ورضاه .

ثم ذكر سعة علمه وإحاطته وأنه لايخفى عليه شىء من الأمور المستقبلة والماضية وأما الخلق فإنهم لايحيطون بشىء من علمه ، قيل يعنى من معلومه ، وقيل من علم أسمائه وصفاته إلا بماشاء الله سبحانه .

يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولايحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء
وسع كرسيه السموات والأرض ولايؤوده حفظهما وهو العلي العظيم)

أن يعلمهم إياه على ألسنة رسله أو بغير ذلك من طرق البحث والنظر والاستنتاج والتجربة .

ثم ذكر مايدل على عظيم ملكه وواسع سلطانه ، فأخبر أن كرسيه قد وسع السموات والأرض جميعاً . والصحيح فى الكرسى أنه غير العرش وأنه موضع القدمين ، وأنه فى العرش كحلقة ملقاة فى فلاة .

وأما ما أورده ابن كثير عن ابن عباس من تفسير الكرسى بالعلم فإنه لايصح ويفضى إلى التكرار فى الآية .

ثم أخبر سبحانه بعد ذلك عن عظيم قدرته وكمال قوته بقوله : (ولايؤوده حفظهما) أى السموات والأرض وما فيهما . وفسر الشيخ رحمه الله يؤوده بـ (يثقله) ويكرثه وهو من آده الأمر إذا ثقل عليه ، ثم وصف نفسه سبحانه فى ختام تلك الآية الكريمة ، بهذين الوصفين الجليلين ، وهما (العلى والعظيم) .

فالعلى هو الذى له العلو المطلق من جميع الوجوه ، علو الذات : وكونه فوق جميع المخلوقات مستوياً على عرشه .

وعلو القدر : إذ كان له كل صفة كمال ، وله من تلك الصفة أعلاها وغايتها .

وعلو القهر: إذ كان هو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير.

وأما العظيم : فمعناه الموصوف بالعظمة الذى لاشىء أعظم منه ، ولا أجل ولا أكبر ، وله سبحانه التعظيم الكامل فى قلوب أنبيائه وملائكته وأصفيائه

قوله (هو الأول) الجمله هنا جاءت معرفة الطرفين ، فهى تفيد اختصاصه سبحانه بهذه الأسماء الأربعة ومعانيها على مايليق بجلاله وعظمته ، فلايثبت لغيره ذلك شىء .

وقد اضطربت عبارات المتكلمين فى تفسير هذه الأسماء ؛ ولا داعى لهذه التفسيرات بعد ماورد تفسيرها عن المعصوم صلوات الله وسلامه عليه ، فقد روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه كان يقول إذا أوى إلى فراشه ؛ « اللهم رب السموات السبع ورب الأرض رب كل شىء ، فالق الحب والنوى ، منزل التوراة والإنجيل والقرآن ؛ أعوذ بك من شر كل ذى شر أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول فليس قبلك شىء ، وأنت الآخر فليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء ، وأنت الباطن فليس دونك شىء ، اقض عنى الدين واغننى من الفقر » .

فهذا تفسير واضح جامع يدل على كمال عظمته سبحانه وأنه محيط بالأشياء من كل وجه (فالأول والآخر) بيان لإحاطته الزمانية ، (والظاهر والباطن) بيان لإحاطته المكانية ، كما أن اسمه الظاهر

وهو بكل شيء عليم) وقوله سبحانه (وتوكل على الحى الذى لا يموت)

يدل على أنه العالى فوق جميع خلقه ، فلاشيء منها فوقه .

فدار هذه الأسماء الاربعة على الإحاطة ؛ فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر ، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن فاسمه الأول دال على قدمه وأزليته ، واسمه الآخر دال على بقائه وأبديته ؛ واسمه الظاهر دال على علوه وعظمته ؛ واسمه الباطن دال على قربه ومعيته ؛ ثم ختمت الآية بما يفيد إحاطة علمه بكل شيء من الأمور الماضية والحاضرة والمستقبلة ؛ ومن العالم العلوى والسفلى ؛ ومن الواجبات والجائزات والمستحيلات فلا يغيب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء . فالآية كلها شأن إحاطة الرب سبحانه بجميع خلقه من كل وجه ؛ وأن العوالم كلها فى قبضة يده كخردلة فى يد العبد لا يفوته منها شيء ؛ وإنما أتى بين هذه الصفات بالواو مع أنها جارية على موصوف واحد لزيادة التقرير والتأكيد ، لأن الواو تقتضى تحقيق الوصف المتقدم وتقريره وحسن ذلك لمجيئها بين أوصاف متقابلة قد يسبق إلى الوهم استبعاد الاتصال بها جميعاً ؛ فإن الأولية تنافى الآخرية فى الظاهر ؛ وكذلك الظاهرية والباطنية فاندفع توهم الإنكار بذلك التأكيد .

قوله (وتوكل الخ) هذه الجملة من الآيات ساقها المؤلف لإثبات بعض الأسماء والصفات . فالآية الأولى فيها إثبات اسمه الحى كما تضمنت سلب

وقوله (وهو العليم الحكيم — وهو العليم الخبير — يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها ؛ ومايتزل من السماء وما يعرج فيها —

الموت الذى هو ضد الحياة عنه ؛ وقد قدمنا أنه سبحانه حى بحياة هى صفة له لازمة لذاته فلا يعرض لها موت ولازوال أصلا ؛ وأن حياته أكمل حياة وأتمها فيستلزم ثبوتها له ثبوت كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة . وأما الآيات الباقية ففيها إثبات صفة العلم وما اشتق منها ككونه عليما ويعلم وأحاط بكل شىء علما الخ .

والعلم صفة لله عز وجل بها يدرك جميع المعلومات على ماهى به فلا يخفى عليه منها شىء كما قدمنا .

وفيها إثبات اسمه الحكيم ؛ وهو مأخوذ من الحكمة ؛ ومعناه الذى لايقول ولا يفعل إلا الصواب ؛ فلا يقع منه عبث ولا باطل ؛ بل كل ما يخلقه أو يأمر به فهو تابع لحكمته .

وقيل هو من فعيل بمعنى مفعل ، ومعناه المحكم للأشياء من الإحكام ؛ وهو الإتقان فلا يقع فى خلقه تفاوت ولافطور ، ولايقع فى تدبيره خلل أو اضطراب .

وفيها كذلك إثبات اسمه الخبير ؛ وهو من الخبرة بمعنى كمال العلم ووثوقه والإحاطة بالأشياء على وجه التفصيل ووصول علمه إلى كل ما خفى ودق من الحسيات والمعنويات .

وقد ذكر سبحانه فى هذه الآيات بعض مايتعلق به علمه الدلالة

وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس

على شموله وإحاطته بما لا تبلغه علوم خلقه ، فذكر أنه يعلم ما يلج أى يدخل فى الأرض من حب وبذر ومياه وحشرات ومعادن ، وما يخرج منها من زرع وأشجار وعيون جارية ومعادن نافعة كذلك وما ينزل من السماء ، من ثلوج وأمطار وصواعق وملائكة ، وما يعرج ، أى يصعد فيها كذلك من ملائكة وأعمال وطير صواف إلى غير ذلك مما يعلمه جل شأنه ، وذكر فيها أيضاً أن عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ومفاتح الغيب قيل خزائنه ، وقيل طرقه وأسبابه التى يتوصل بها إليه ، جمع مفتح بكسر الميم أو مفتاح بحذف ياء مفاعيل .

وقد فسرها النبى ﷺ بقوله « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله » ثم تلا قوله تعالى (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير) .

وقد دلت الآيتان الأخيرتان على أنه سبحانه عالم بعلم هو صفة له قائم بذاته خلافاً المعتزلة الذين نفوا صفاته ، فنهم من قال إنه عالم بذاته وقادر بذاته إلخ ؛ ومنهم من فسر أسماءه بمعان سلبية فقال : عليم معناه لا يجهل ؛ وقادر معناه لا يعجز إلخ .

إلا فى كتاب مبين) وقوله (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) وقوله (لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علما) .

وهذه الآيات حجة عليهم فقد أخبر فيها سبحانه عن إحاطة علمه بحمل كل أنثى ووضعها من حيث المتى والكيف ؛ كما أخبر عن عموم قدرته وتعلقها بكل ممكن وعن إحاطة علمه بجميع الأشياء وما أحسن ماقاله الإمام عبد العزيز المكى فى كتابه الحيدة لبشر المريسى المعتزلى وهو يناظره فى مسألة العلم « إن الله عز وجل لم يمدح كتابه ملكا مقرباً ولا نبياً مرسلا ولا مؤمناً تقياً بنفى الجهل عنه ليدل على إثبات العلم له ؛ وإنما مدحهم بإثبات العلم لهم فنفى بذلك الجهل عنهم ؛ فمن أثبت العلم نفى الجهل ؛ ومن نفى الجهل لم يثبت العلم » .

والدليل العقلى على علمه تعالى أنه يستحيل إيجاده الأشياء مع الجهل لأن إيجاده الأشياء بإرادته ، والإرادة تستلزم العلم المراد ولهذا قال سبحانه (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) .

ولأن المخلوقات فيها من الإحكام والإتقان وعجيب الصنعة ودقيق الخلقة مايشهد بعلم الفاعل لها لامتناع صدور ذلك عن غير علم .

ولأن من المخلوقات من هو عالم والعلم صفة كمال ؛ فلو لم يكن الله عالماً لكان فى المخلوقات من هو أكمل منه .

وكل علم في المخلوق إنما استفاده من خالقه ؛ وواهب الكمال أحق به ؛ وفاقد الشيء لايعطيه . وأنكر الفلاسفة علمه تعالى بالجزئيات وقالوا إنه يعلم الأشياء على وجه كلى ثابت ؛ وحقيقة قولهم إنه لايعلم شيئا ؛ فان كل مافى الخارج هو جزئى . كما أنكر الغلاة من القدرية علمه تعالى بأفعال العباد حتى يعملوها ، توهماً منهم أن علمه بها يفضى إلى الجبر ؛ وقولهم معلوم البطلان بالضرورة فى جميع الأديان . قوله (إن الله إلخ) تضمنت إثبات اسمه الرزاق وهو مبالغة من الرزق ومعناه الذى يرزق عباده رزقاً بعد رزق فى إكثار وسعة ؛ وكل ماوصل منه سبحانه من نفع إلى عباده فهو رزق مباحاً كان أو غير مباح على معنى أنه قد جعله لهم قوتاً ومعاشاً ؛ قال تعالى (والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد) وقال (وفى السماء رزقكم وما توعدون) إلا أن الشيء إذا كان مأذوناً فى تناوله فهو حلال حكماً وإلا كان حراما ، وجميع ذلك رزق ، وتعريف الجملة الإسمية والإتيان فيها بضمير الفصل لإفادة اختصاصه سبحانه بإيصال الرزق إلى عباده .

وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « أقرأنى رسول الله ﷺ إنى أنا الرزاق ذو القوة المتين »

وأما قوله (ذو القوة) أى صاحب القوة فهو بمعنى اسمه القوى

وقوله (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) وقوله (إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً) :

إلا أنه أبلغ فى المعنى ، فهو يدل على أن قوته سبحانه لاتتناقص فيهن أو يفتر .

وأما (المتين) فهو اسم له من المتانة ، وقد فسره ابن عباس « بالشـــديد » .

قوله (ليس كمثله شيء الخ) دل إثبات صفتى السمع والبصر له سبحانه بعد نفى المثل عنه على أنه ليس المراد من نفى المثل نفى الصفات كما يدعى ذلك المعطلة ويحتجون به باطلا ، بل المراد إثبات الصفات مع نفى مماثلتها لصفات المخلوقين .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله (قوله ليس كمثله شيء) إنما قصد به نفى أن يكون معه شريك أو معبود يستحق العبادة والتعظيم كما يفعله المشبهون والمشركون ، ولم يقصد به نفى صفات كماله وعلوه على خلقه وتكليمه بكتبه وتكلمه لرسله ورؤية المؤمنين له جهرة بأبصارهم كما ترى الشمس والقمر فى الصحو . اه

ومعنى السميع المدرك لجميع الأصوات مهما خفتت ، فهو يسمع السر والنجوى بسمع هو صفة لايماثل أسماع خلقه .

ومعنى البصير المدرك لجميع المرئيات من الأشخاص والألوان مهما لطفت أو بعدت فلا تؤثر على رؤيته الحواجز والأستار وهو من

وقوله (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لاقوة إلا بالله) .
وقوله (ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد) .

فعيل بمعنى مُفْعِل ، وهو دال على ثبوت صفة البصر له سبحانه على الوجه الذى يليق به .

روى أبو داود فى سننه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية (إن الله كان سميعاً بصيراً) فوضع إبهامه على أذنه والتى تليها على عينه .

ومعنى الحديث أنه سبحانه يسمع بسمع ويرى بعين فهو حجة على بعض الأشاعرة الذين يجعلون سمعه علمه بالمسموعات وبصره علمه بالمبصرات ، وهو تفسير خاطىء ، فإن الاعمى يعلم بوجود السماء ولا يراها ، والأصم يعلم بوجود الأصوات ولا يسمعها .

قوله (ولولا إذ دخلت ، الخ) هذه الآيات دلت على إثبات صفتى الإرادة والمشيئة ، والنصوص فى ذلك لاتحصى كثرة .

والأشاعرة يثبتون إرادة واحدة قديمة تعلقت فى الأزل بكل المرادات فيلزمهم تخلف المراد عن الإرادة ، وأما المعتزلة فعلى مذهبهم فى نفى الصفات لايثبتون ى صفة الإرادة ، ويقولون إنه يريد بإرادة حادثة لا فى محل ، فيلزمهم قيام الصفة بنفسها وهو من أبطل الباطل .

وقوله (أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد) .

وأما أهل الحق فيقولون إن الإرادة على نوعين .

١) إرادة كونية وترادفها المشيئة ، وهما تتعلقان بكل ما يشاء الله فعله وإحداثه ، فهو سبحانه إذا أراد شيئاً وشاءه كان عقب إرادته له كما قال تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) وفى الحديث الصحيح (ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن) .

٢) وإرادة شرعية تتعلق بما يأمر الله به عباده مما يحبه ويرضاه وهى المذكورة فى مثل قوله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ولا تلازم بين الإرادتين بل قد تتعلق كل منهما بما لا تتعلق به الأخرى فبينهما عموم وخصوص من وجه . فالإرادة الكونية أعم من جهة تعلقها بما لا يحبه الله ويرضاه من الكفر والمعاصى ، وأخص من جهة أنها لا تتعلق بمثل إيمان الكافر وطاعة الفاسق .

والإرادة الشرعية أعم من جهة تعلقها بكل مأمور به واقعاً كان أو غير واقع ، وأخص من جهة أن الواقع بالإرادة الكونية قد يكون غير مأمور به .

والحاصل أن الإرادتين قد تجتمعان معاً فى مثل إيمان المؤمن وطاعة المطيع ، وتنفرد الكونية فى مثل كفر الكافر ومعصية العاصى ، وتنفرد الشرعية فى مثل إيمان الكافر وطاعة العاصى

وقوله (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء) .

وقوله تعالى (ولولا إذ دخلت جنتك) الآية ، هذا من قول الله حكاية عن الرجل المؤمن لزميله الكافر صاحب الجنتين يعظه به أن يشكر نعمة الله عليه ويردها إلى مشيئة الله ويبرأ من حوله وقوته فإنه لاقوة إلا بالله .

وقوله (ولو شاء الله ما اقتتلوا) الآية ، إخبار عما وقع بين أتباع الرسل من بعدهم من التنازع والتعادى بغياً بينهم وحسداً ، وأن ذلك إنما كان بمشيئة الله عز وجل ، ولو شاء عدم حصوله ما حصل ولكنه شاءه فوقع .

وقوله (فمن يرد الله أن يهديه إلخ) الآية تدل على أن كلا من الهداية والضلال بخلق الله عز وجل ، فمن يرد هدايته ، أى إلهامه وتوفيقه يشرح صدره للإسلام بأن يقذف فى قلبه نوراً فيتسع له وينبسط كما ورد فى الحديث — ومن يرد إضلاله وخذلانه يجعل صدره فى غاية الضيق والحرج ، فلا ينفذ إليه نور الإيمان . وشبه ذلك بمن يصعد فى السماء .

تضمنت هذه الآيات إثبات أفعال له تعالى ناشئة عن صفة المحبة ومحبة الله عز وجل لبعض الأشخاص والأعمال والأخلاق صفة له قائمة به ، وهى من صفات الفعل الاختيارية التى تتعلق بمشيئته

وقوله (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين — وأقسطوا إن الله يحب المقسطين —

فهو يحب بعض الأشياء دون بعض على ما تقتضيه الحكمة البالغة وينفى الأشاعرة والمعتزلة صفة المحبة بدعوى أنها توهم نقصاً ، إذ المحبة فى المخلوق معناها ميله إلى ما يناسبه أو يستلذه ، فأما الأشاعرة فيرجعونها إلى صفة الإرادة ، فيقولون إن محبة الله لعبده لا معنى لها إلا إرادته لإكرامه ومثوبته .

وكذلك يقولون فى صفات الرضى والغضب والكراهية والسخط كلها عندهم بمعنى إرادة الثواب والعقاب .

وأما المعتزلة فلأنهم لا يثبتون إرادة قائمة به ، فيفسرون المحبة بأنها نفس الثواب الواجب عندهم على الله لهؤلاء بناء على مذهبهم فى وجوب إثابة المطيع وعقاب العاصى .

وأما أهل الحق فيثبتون المحبة صفة حقيقية لله عز وجل على ما يليق به فلا تقتضى عندهم نقصاً ولا تشبيهاً .

كما يثبتون لازم تلك المحبة وهى إرادته سبحانه إكرام من يحبه وإثابته ، وليت شعرى بماذا يجيب النافون للمحبة عن مثل قوله عليه السلام فى حديث أبى هريرة « إن الله عز وجل إذا أحب عبداً قال لجبريل عليه السلام إنى أحب فلاناً فأحبه ، قال فيقول جبريل عليه السلام لأهل السماء : إن ربكم عز وجل يحب فلاناً فأحبوه ،

فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ـ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) . وقوله (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) .

قال فيحبه أهل السماء ويوضع له القبول فى الأرض ، وإذا أبغضه فمثل ذلك) رواه الشيخان .

وقوله تعالى فى الآية الأولى (وأحسنوا) أمر بالإحسان العام فى كل شيء لاسيما فى الفقه المأمور بها قبل ذلك ؛ والإحسان فيها يكون بالبذل وعدم الإمساك ، أو بالتوسط بين التقتير والتبذير ؛ وهو القوام الذى أمر الله به فى سورة الفرقان .

روى مسلم فى صحيحه عن شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال « إن الله كتب الإحسان على كل شيء ؛ فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ؛ وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته » وأما قوله (إن الله يحب المحسنين) فهو تعليل للأمر بالإحسان فإنهم إذا علموا أن الإحسان موجب لمحبته سارعوا إلى امتثال الأمر به .

وأما قوله فى الآية الثانية (وأقسطوا) فهو أمر بالإقساط وهو العدل فى الحكم بين الطائفتين المتنازعتين من المؤمنين ؛ وهو من قسط إذا جار ، فالهمزة فيه للسلب ، ومن أسمائه تعالى المقسط ، وفى الآية الحث على العدل وفضله ، وأنه سبب لمحبة الله عز وجل .

وقوله (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) وقوله (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص)

وأما قوله تعالى (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم) فمعناه إذا كان بينكم وبين أحد عهد كهؤلاء الذين عاهدتموهم عند المسجد الحرام فاستقيموا لهم على عهدهم مدة استقامتهم لكم ، فما هنا مصدرية ظرفية ثم علل ذلك الأمر بقوله (إن الله يحب المتقين) أى يحب الذين يتقون الله فى كل شىء ومنه عدم نقض العهود .

وأما قوله (إن الله يحب التوابين الخ) فهو إخبار من الله سبحانه عن محبته لهذين الصنفين من عباده .

أما الأول فهم التوابون ، أى الذين يكثرون التوبة والرجوع إلى الله عز وجل بالاستغفار مما ألموا به على ما تقتضيه صيغة المبالغة ، فهم بكثرة التوبة قد تطهروا من الأقذار والنجاسات المعنوية التى هى الذنوب والمعاصى .

وأما الثانى فهم المتطهرون الذين يبالغون فى التطهر ، وهو التنظيف بالوضوء أو بالغسل من الأحداث والنجاسات الحسية ، وقيل المراد بالمتطهرين هنا الذين يتنزهون من إتيان النساء فى زمن الحيض أو فى أدبارهن ، والحمل على العموم أولى .

وأما قوله تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) فقد روى عن الحسن فى سبب نزولها أن قوماً ادعوا أنهم يحبون

وقوله (وهو الغفور الودود) .

الله فأنزل الله هذ الآية محنة لهم ، وفى هذه الآية قدشرط الله لمحبته اتباع نبيه ﷺ ، فلا ينال تلك المحبة إلا من أحسن الاتباع ، والاستمساك بهديه عليه السلام .

قوله (وهو الغفور الخ) تضمنت الآية إثبات اسمين من الأسماء الحسنى وهما « الغفور والودود » أما الأول فهو مبالغة الغفر ومعناه الذى يكثر منه الستر على المذنبين من عباده والتجاوز عن مؤاخذتهم .

وأصل الغفر الستر ، ومنه يقال : الصبغ أغفر للوسخ . ومنه المغفر لسترة الرأس .

وأما الثانى فهو من الود الذى هو خالص الحب وألطفه ، وهو إما من فعول بمعنى فاعل ، فيكون معناه الكثير الود لأهل طاعته والمتقرب إليهم بنصرلة ومعونته .

وأما من فعول بمعنى مفعول فيكون معناه المودود لكثرة إحسانه المستحق لأن يوده خلقه فيعبدوه ويحمدوه .

وأما قوله (بسم الله الرحمن الرحيم) وما بعدها من الآيات فقد تضمنت إثبات أسمائه الرحمن والرحيم وإثبات صفتى الرحمة والعلم.

وقد تقدم فى تفسير بسم الله الرحمن الرحيم الكلام على هذين الاسمين وبيان الفرق بينهما ، وأن أولهما دال على صفة الذات والثانى

دال على صفة الفعل ، وقد أنكر الأشاعرة والمعتزلة صفة الرحمة بدعوى أنها فى المخلوق ضعف وخور وتألم للمرحوم ، وهذا من أقبح الجهل فإن الرحمة إنما تكون من الأقوياء للضعفاء ، فلا تستلزم ضعفاً ولا خوراً بل قد تكون مع غاية العزة والقدرة . فالإنسان القوى يرحم ولده الصغير وأبويه الكبيرين ومن هو أضعف منه ، وأين الضعف والخور وهما من أذم الصفات من الرحمة التى وصف الله نفسه بها وأثنى على أوليائه المتصفين بها وأمرهم أن يتواصوا بها .

وقوله (ربنا وسعت إلخ) من كلام الله عز وجل حكاية عن حملة العرش والذين حوله ، يتوسلون إلى الله عز وجل بربوبيته وسعة علمه ورحمته فى دعائهم للمؤمنين ، وهو من أحسن التوسلات التى يرجى معها الإجابة .

وانصب قوله رحمة وعلماً على التمييز المحول عن الفاعل ، والتقدير وسعت رحمتك وعلمك كل شىء ، فرحمته سبحانه وسعت فى الدنيا المؤمن والكافر والبر والفاجر ، ولكنها يوم القيامة تكون خاصة بالمتقين كما قال تعالى (فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة) الآية . وقوله تعالى (كتب ربكم على نفسه الرحمة) أى أوجبها على نفسه تفضلا وإحساناً ولم يوجبها عليه أحد .

وفى حديث أبى هريرة فى الصحيحين « أن الله لما خلق الخلق

(وكان بالمؤمنين رحيما — ورحمتى وسعت كل شىء — كتب ربكم على نفسه الرحمة — وهو الغفور الرحيم — فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين) .

قوله (رضى الله عنهم ورضوا عنه — ومن يقتل مؤمناً متعمداً

كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش إن رحمتى سبقت أو تسبق غضبى »

وأما قوله « فالله خير حافظاً » فالحافظ والحفيظ مأخوذ من الحفظ وهو الصيانة . ومعناه الذى يحفظ عباده بالحفظ العام فييسر لهم أقواتهم ويقيهم أسباب الهلاك والعطب وكذلك يحفظ عليهم أعمالهم ويحصى أقوالهم ويحفظ أولياءه بالحفظ الخاص فيعصمهم عن مواقعة الذنوب ويحرسهم من مكايد الشيطان وعن كل مايضرهم فى دينهم ودنياهم ، وانتصب حافظاً تمييزاً لخير الذى هو أفعل تفضيل .

قوله (رضى الله عنهم الخ) تضمنت هذه الآيات إثبات بعض صفات الفعل من الرضى لله الغضب ، واللعن والكره ، والسخط والمقت والأسف .

وهى عند أهل الحق صفات حقيقية لله عز وجل على مايليق به ولا تشبه مايتصف به المخلوق من ذلك ، ولا يلزم منها مايلزم فى المخلوق ، فلا حجة للأشاعرة والمعتزلة على نفيها ولكنهم ظنوا أن اتصاف الله عز وجل بها يلزمه أن تكون هذه الصفات فيه على نحو ماهى فى المخلوق ، وهذا الظن الذى ظنوه فى ربهم أرداهم فأوقعهم

فجزؤاه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه) وقوله (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه) .

فى حمأة النفى والتعطيل ، والأشاعرة يرجعون هذه الصفات كلها إلى الإرادة كما علمت سابقاً ، فالرضى عندهم إرادة الثواب والغضب والسخط الخ إرادة العقاب .

وأما المعتزلة فيرجعونها إلى نفس الثواب والعقاب .

وقوله سبحانه (رضى الله عنهم ورضوا عنه) إخبار عما يكون بينه وبين أوليائه من تبادل الرضى والمحبة ، أما رضاه عنهم فهو أعظم وأجل من كل ما أعطوا من النعيم كما قال سبحانه (ورضوان من الله أكبر) وأما رضاهم عنه فهو رضى كل منهم بمنزلته مهما كانت وسروره بها حتى يظن أنه لم يؤت أحد خيراً مما أوتى ، وذلك فى الجنة .

وأما قوله (ومن يقتل مؤمناً متعمداً) الآية ، فقد احترز بقوله مؤمناً عن قتل الكافر ، وبقوله متعمداً ، أى قاصداً لذلك (بأن يقصد من يعلمه آدمياً معصوماً فيقتله بما يغلب على الظن موته به) عن القتل الخطأ .

وقوله (خالداً فيها) أى مقيماً على جهة التأبيد ، وقيل الخلود المكث الطويل واللعن هو الطرد والابتعاد عن رحمة الله ، واللعين والملعون من حقت عليه اللعنة أو دعى عليه بها .

وقد استشكل العلماء هذه الآيات من حيث أنها تدل على أن

(فلما آسفونا انتقمنا منهم) وقوله (ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم) وقوله (كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) .

القاتل عمداً لاتوبة له وأنه مخلد فى النار ، وهذا معارض لقوله تعالى (إنالله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) وقد أجابوا عن ذلك بعدة أجوبة منها :

١ — أن هذا الجزاء لمن كان مستحلا لقتل المؤمن عمداً .

٢ — أن هذا هو جزاؤه الذى يستحقه لو جوزى مع إمكان أن لايجازى بأن يتوب أو يعمل صالحاً يرجح بعمله السيء .

٣ — أن الآية واردة مورد التغليظ والزجر .

٤ — أن المراد بالخلود المكث الطويل كما قدمنا .

وقد ذهب ابن عباس وجماعة إلى أن القاتل عمداً لاتوبة له حتى قال ابن عباس : إن هذه الآية من آخر ما نزل ولم ينسخها شيء ، والصحيح أن على القاتل حقوقاً ثلاثة : حقاً لله وحقاً للورثة وحقاً للقتيل ، فحق الله يسقط بالتوبة ، وحق الورثة يسقط بالاستيفاء فى الدنيا أو العفو ، وأما حق القتيل فلا يسقط حتى يجتمع بقاتله يوم القيامة ويأتى رأسه فى يده ويقول يارب سل هذا فيم قتلنى ؟

وأما قوله (فلما آسفونا الخ) فالأسف يستعمل بمعنى شدة الحزن وبمعنى شدة الغضب والسخط وهو المراد فى الآية والانتقام

وقوله (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر) .

المجازاة بالعقوبة مأخوذاً من النقمة وهى شدة الكراهة والسخط .

قوله (هل ينظرون الخ) فى هذه الآيات إثبات صفتين من صفات الفعل له سبحانه وهما صفتا الإتيان والمجىء والذى عليه أهل السنة والجماعة الإيمان بذلك على حقيقته والابتعاد عن التأويل الذى هو فى الحقيقة إلحاد وتعطيل .

ولعل من المناسب أن ننقل إلى القارىء هنا ما كتبه حامل لواء التجهم والتعطيل فى هذا العصر وهو المدعو بزاهد الكوثرى .

قال فى حاشيته على كتاب الأسماء والصفات للبيهقى مانصه : (قال الزمخشرى مامعناه إن الله يأتى بعذاب فى الغمام الذى ينتظر منه الرحمة ، فيكون مجىء العذاب من حيث تنتظر الرحمة أفظع وأهول) وقال إمام الحرمين فى معنى الباء كما سبق ، وقال الفخر الرازى أن يأتيهم أمر الله . اهـ .

فأنت ترى من نقل هذا الرجل عن أسلافه فى التعطيل مدى اضطرابهم فى التخريج والتأويل .

على أن الآيات صريحة فى بابها لا تقبل شيئاً من تلك التأويلات فالآية الأولى تتوعد هؤلاء المصرين على كفرهم وعنادهم واتباعهم الشيطان بأنهم ماينتظرون إلا أن يأتيهم الله عز وجل فى ظلل الغمام

وقوله (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام - كل شيء هالك إلا وجهه) .

لفصل القضاء بينهم ، وذلك يوم القيامة ، ولهذا قال بعد ذلك (وقضى الأمر) والآية الثانية أشد صراحة إذ لا يمكن تأويل الإتيان فيها بأنه إتيان الأمر أو العذاب لأنه ردد فيها بين إتيان الملائكة وإتيان الرب وإتيان بعض آيات الرب سبحانه .

وقوله فى الآية التى بعدها (وجاء ربك والملك صفاً صفا) لا يمكن حملها على مجيء العذاب ، لأن المراد مجيئه سبحانه يوم القيامة لفصل القضاء ، والملائكة صفوف إجلالا وتعظيماً له ، وعند مجيئه تنشق السماء بالغمام كما أفادته الآية الأخيرة . وهو سبحانه يجيء ويأتى وينزل ويدنو وهو فوق عرشه بائن من خلقه . فهذه كلها أفعال له سبحانه على الحقيقة ، ودعوى المجاز تعطيل له عن فعله واعتقاد أن ذلك المجيء والإتيان من جنس مجيء المخلوقين وإتيانهم نزوع إلى التشبيه يفضى إلى الإنكار والتعطيل .

قوله (ويبقى وجه ربك الخ) تضمنت هاتان الآيتان إثبات صفة الوجه لله عز وجل .

والنصوص فى إثبات الوجه من الكتاب والسنة لا تحصى كثرة وكلها تنفى تأويل المعطلة الذين يفسرون الوجه بالجهة أو الثواب أو الذات ، والذى عليه أهل الحق أن الوجه صفة غير الذات ولا يقتضى

لإثباته كونه تعالى مركباً من أعضاء كما يقوله المجسمة ، بل هو صفة لله على مايليق به فلا يشبه وجهاً ولا يشبهه وجه .

واستدل المعطلة بهاتين الآيتين على أن المراد بالوجه الذات إذ لاخصوص للوجه فى البقاء وعدم الهلاك .

ونحن نعارض هذا الاستدلال بأنه لو لم يكن لله عز وجل وجه على الحقيقة لما جاز استعمال هذا اللفظ فى معنى الذات فإن اللفظ الموضوع لمعنى لايمكن أن يستعمل فى معنى آخر إلا إذا كان المعنى الأصلى ثابتاً للموصوف حتى يمكن للذهن أن ينتقل من الملزوم إلى لازمه ، على أنه يمكن دفع مجازهم بطريق آخر فيقال إنه أسند البقاء إلى الوجه ، ويلزم منه بقاء الذات بدلا من أن يقال أطلق الوجه وأراد الذات . وقد ذكر البيهقى نقلا عن الخطابى أنه تعالى لما أضاف الوجه إلى الذات وأضاف النعت إلى الوجه فقال (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) دل على أن ذكر الوجه ليس بصلة وأن قوله ذو الجلال والإكرام صفة للوجه والوجه صفة للذات .

وكيف يمكن تأويل الوجه بالذات أو بغيرها فى مثل قوله عليه السلام فى حديث الطائف « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات الخ) وقوله فيما رواه أبو موسى الأشعرى «حجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ماانتهى إليه بصره من خلقه .

قوله (مامنعك الخ) تضمنت هاتان الآيتان إثبات اليدين صفة

وقوله (مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى — وقالت اليهود يد الله مغلولة . غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا

حقيقية له سبحانه على مايليق به ، فهو فى الآية الاولى يوبخ إبليس على امتناعه عن السجود لآدم الذى خلقه بيديه ، ولا يمكن حمل اليدين هنا على القدرة ، فإن الأشياء جميعاً حتى إبليس خلقها الله بقدرته فلا يبقى لآدم خصوصية يتميز بها .

وفى حديث عبد الله بن عمرو « إن الله عز وجل خلق ثلاثة أشياء بيده : خلق آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس جنة عدن بيده ، فتخصيص هذه الثلاثة بالذكر مع مشاركتها لبقية المخلوقات فى وقوعها بالقدرة دال على اختصاصها بأمر زائد .

وأيضاً فلفظ اليدين بالتثنية لم يعرف استعماله إلا فى اليد الحقيقية ولم يرد قط بمعنى القدرة أو النعمة فإنه لايسوغ أن يقال خلقه الله بقدرتين أو بنعمتين ، على أنه لا يجوز إطلاق اليدين بمعنى النعمة أو القدرة أو غيرهما إلا فى حق من اتصف باليدين على الحقيقة ، ولذلك لايقال للريح يد ولا للماء يد .

وأما احتجاج المعطلة بأن اليد قد أفردت فى بعض الآيات وجاءت بلفظ الجمع فى بعضها فلا دليل فيه ، فإن مايصنع بالاثنين قد ينسب إلى الواحد ، تقول رأيت بعينى وسمعت بأذنى والمراد

بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) وقوله (فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا — وحملناه على ذات ألواح ودسر —

عيناى وأذناى وكذلك الجمع يأتى بمعنى المثنى أحياناً كقوله تعالى (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) والمراد قلباكما .

وكيف يتأتى حمل اليد على القدرة أو النعمة مع ماورد من إثبات الكف والأصابع واليمين والشمال والقبض والبسط وغير ذلك مما لايكون إلا لليد الحقيقية .

وفى الآية الثانية يحكى الله سبحانه مقالة اليهود قبحهم الله فى ربهم ووصفهم إياه حاشاه بأن يده مغلولة أى ممسكة عن الإنفاق .

ثم أثبت لنفسه سبحانه عكس ماقالوا ، وهو أن يديه مبسوطتان بالعطاء ينفق كيف يشاء ، كما جاء فى الحديث إن يمين الله ملأى سحاء الليل والنهار لا تغيضها نفقة . ترى لو لم يكن لله يدان على الحقيقة هل كان يحسن هذا التعبير ببسط اليدين .

ألا شاهت وجوه المتأولين .

قوله (فاصبر لحكم ربك الخ) فى هذه الآيات الثلاث يثبت الله سبحانه لنفسه عيناً يرى بها جميع المرئيات ، وهى صفة حقيقية لله عز وجل على مايليق به فلا يقتضى إثباتها كونها جارحة مركبة من شحم وعصب وغيرهما .

وتفسير المعطلة لها بالرؤية أو بالحفظ والرعاية نفى وتعطيل

تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر ، وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى) .

وأما إفرادها فى بعض النصوص وجمعها فى البعض الآخر فلا حجة لهم فيه على نفيها ، فإن لغة العرب تتسع لذلك ، فقد يعبر فيها عن الاثنين بلفظ الجمع ، ويقوم فيها الواحد مقام الاثنين كما قدمنا فى اليدين .

على أنه لا يمكن استعمال لفظ العين فى شىء من هذه المعانى التى ذكروها إلا بالنسبة لمن له عين حقيقية فهل يريد هؤلاء المعطلة أن يقولوا إن الله يتمدح بما ليس فيه فيثبت لنفسه عيناً وهو عاطل عنها ؟ وهل يريدون أن يقولوا إن رؤيته للأشياء لا تقع بصفة خاصة بها بل هو يراها بذاته كلها ، كما تقول المعتزلة إنه قادر بذاته مريد بذاته الخ وفى الآية الأولى يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر لحكمه والاحتمال لما يلقاه من أذى قومه ، ويعلل ذلك الأمر بأنه بمرأى منه وفى كلاءته وحفظه .

وفى الآية الثانية يخبر الله عز وجل عن نبيه نوح عليه السلام أنه لما كذبه قومه وحقت عليهم كلمة العذاب وأخذهم الله بالطوفان حمله هو ومن معه من المؤمنين على سفينة ذات ألواح عظيمة من الخشب ودسر ، أى مسامير جمع دسار تشد بها الألواح ، وأنها كانت تجرى بعين الله وحراسته .

وقوله (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير) وقوله (ولقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء) .

وفي الآية الثالثة : خطاب من الله لنبيه موسى عليه السلام بأنه ألقى عليه محبة منه ، يعني أحبه هو سبحانه وحببه إلى خلقه ، وأنه صنعه على عينه ورباه تربية استعد بها للقيام بما حمله من رسالة إلى فرعون وقومه .

قوله (قد سمع الله الخ) هذه الآيات ساقها المؤلف لإثبات صفات السمع والبصر والرؤية .

أما السمع : فقد عبرت عنه الآيات بكل صيغ الاشتقاق وهي سمع ويسمع وسميع ونسمع وأسمع ، فهو صفة حقيقية لله يدرك بها الأصوات كما قدمنا .

وأما البصر : فهو الصفة التي يدرك بها الأشخاص والألوان والرؤية لازمة له ، وقد جاء في حديث أبي موسى (يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ولكن تدعون سميعاً بصيراً إن الذين تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته) .

وكل من السمع والبصر صفة كمال وقد عاب الله على المشركين عبادتهم ما لا يسمع ولا يبصر ، وقد نزلت الآية الأولى في شأن خولة بنت ثعلبة حين ظاهر منها زوجها فجاءت تشكو إلى رسول

وقوله (أم يحسبون أنا لانسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون — إننى معكما أسمع وأرى — ألم يعلم بأن الله يرى — الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين إنه هو السميع العليم — وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) .

الله ﷺ وتحاوره وهو يقول لها : ماأراك إلا قد حرمت عليه.

أخرج البخارى فى صحيحه عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت « الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله ﷺ وأنا فى ناحية من البيت ماأسمع ماتقول فأنزل الله عز وجل (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) الآيات .

وأما الآية الثانية : فقد نزلت فى فنحاص اليهودى الخبيث حين قال لأبى بكر رضى الله عنه لما دعاه إلى الإسلام : والله يا أبا بكر مابنا إلى الله من حاجة من فقر وأنه إلينا لفقير ولو كان غنياً ما استقرضنا) . وأما الآية الثالثة : فأم بمعنى بل والهمزة فهى أم المنقطعة والاستفهام إنكارى يتضمن معنى التوبيخ ، والمعنى بل أيظن هؤلاء فى تخفيهم واستتارهم أنا لانسمع سرهم ونجواهم ، بلى نسمع ذلك وحفظتنا لديهم يكتبون مايقولون ومايفعلون .

وأما الآية الرابعة : فهى خطاب من الله عز وجل لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام حين شكوا إلى الله خوفهما من بطش فرعون بهما ، فقال لهما : « لاتخافا إننى معكما أسمع وأرى »

وقوله (وهو شديد المحال) وقوله (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) .

وأما الآية الخامسة فقد نزلت فى شأن أبى جهل لعنه الله حين نهى النبي ﷺ عن الصلاة عند البيت فنزل قوله تعالى (أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى ، أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى، أرأيت إن كذب وتولى ، ألم يعلم بأن الله يرى) الخ السورة

وقوله (وهو شديد المحال الخ) تضمنت هذه الآيات إثبات صفتى المكر والكيد وهما من صفات الفعل الاختيارية ، ولكن لاينبغى أن يشتق له من هاتين الصفتين اسم ، فيقال ماكر وكائد بل يوقف عندما ورد به النص من أنه خير الماكرين ، وأنه يكيد لأعدائه الكافرين .

أما قوله سبحانه (وهو شديد المحال) فمعناه شديد الأخذ بالعقوبة كما فى قوله تعالى (إن بطش ربك لشديد) (إن أخذه أليم شديد) .

وقال ابن عباس : معناه شديد الحول ، وقال مجاهد : شديد القوة والأقوال متقاربة .

وأما قوله (والله خير الماكرين) فمعناه أنفذهم وأسرعهم مكراً.

وقد فسر بعض السلف مكر الله بعباده بأنه استدراجهم بالنعم من حيث لايعلمون ، فكلما أحدثوا ذنباً أحدث لهم نعمة ، وفى

وقوله (ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون) وقوله (إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً) وقوله (إن تبدو خيراً أو تخفوه

الحديث « إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلم أنما ذلك منه استدراج .

وقد نزلت هذه الآية فى شأن عيسى عليه السلام حين أراد اليهود قتله فدخل بيتاً فيه كوة وقد أيده الله بجبريل عليه السلام فرفعه إلى السماء من الكوة ، فدخل عليه يهوذا ليدلهم عليه فيقتلوه فألقى الله شبه عيسى على ذلك الخائن ، فلما دخل البيت فلم يجده فيه عيسى خرج إليهم وهو يقول ما فى البيت أحد ، فقتلوه وهم يرون أنه عيسى فذلك قوله تعالى (ومكروا ومكر الله) .

وأما قوله تعالى (ومكروا مكراً الخ) فهى فى شأن الرهط التسعة من قوم صالح عليه السلام حين تقاسموا بالله ليبيتنه وأهله ، أى ليقتلنه بياتاً هو وأهله ثم ليقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله ، فكان عاقبة هذا المكر منهم أن مكر الله بهم فدمرهم وقومهم أجمعين .

قوله (إن تبدوا خيراً الخ) هذه الآيات تضمنت إثبات صفات العفو والقدرة والمغفرة والرحمة والعزة والتبارك والجلال والإكرام .

فالعفو الذى هو اسمه تعالى معناه المتجاوز عن عقوبة عباده

أو تعفو عن سوء فإن الله كان عفواً قديرا وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) وقوله (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) .

إذا هم تابوا إليه وأنابوا كما قال تعالى (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات) .

ولما كان أكمل العفو ما كان عن قدرة تامة على الانتقام والمؤاخذة جاء هذان الإسمان الكريمان العفو والقدير ، مقترنين في هذه الآية وفى غيرها .

وأما القدرة فهى الصفة التى تتعلق بالممكنات إيجاداً وإعداماً فكل ما كان ووقع من الكائنات واقع بمشيئته وقدرته كما فى الحديث « ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن » وأما قوله تعالى (وليعفوا وليصفحوا) الآية ، فقد نزلت فى شأن أبى بكر رضى الله عنه حين حلف لاينفق على مسطح بن أثاثة ، وكان ممن خاضوا فى الإفك ، وكانت أم مسطح بنت خالة أبى بكر ، فلما نزلت هذه الآية قال أبوبكر : والله إنى لأحب أن يغفر الله لى ووصل مسطحاً .

وأما قوله تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) فقد نزلت فى شأن عبد الله بن أبى بن سلول رئيس المنافقين ، وكان فى بعض الغزوات قد أقسم ليخرجن رسول الله ﷺ هو وأصحابه من المدينة فنزل قوله تعالى (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن

وقوله عن إبليس (فبعزتك لأغوينهم أجمعين) وقوله (تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام) .

الأعز منها الأذل) يقصد بالأعز قبحه الله نفسه وأصحابه . ويقصد بالأذل رسول الله ومن معه من المؤمنين ، فرد الله عز وجل عليه بقوله (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) .

والعزة صفة أثبتها الله عز وجل لنفسه ، قال تعالى (وهو العزيز الحكيم) وقال (وكان الله قوياً عزيزاً) وأقسم بها سبحانه كما فى حديث الشفاعة « وعزتى وكبريائى وعظمتى لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله » ، وأخبر عن إبليس أنه قال « فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » .

وفى صحيح البخارى وغيره عن أبى هريرة « بينا أيوب عليه السلام يغتسل عرياناً خر عليه جراد من ذهب فجعل يحثى فى ثوبه فناداه ربه : يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال بلى وعزتك ولكن لا غنى لى عن بركتك » .

وقد جاء فى حديث الدعاء الذى علمه النبى ﷺ لما كان به وجع « أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » .

والعزة تأتى بمعنى الغلبة والقهر من عز يعز بضم العين فى المضارع يقال عزه إذا غلبه ، وتأتى بمعنى القوة والصلابة من عز يعز بفتحها ومنه أرض عزاز للصلبة الشديدة ، وتأتى بمعنى علو القدر

والامتناع من الأعداء من عز يعز بكسرها ، وهذه المعانى كلها ثابتة لله عز وجل .

وأما قوله تعالى (تبارك اسم ربك) فإنه من البركة بمعنى دوام الخير وكثرته ، وقوله (ذو الجلال) أى صاحب الجلال والعظمة سبحانه الذى لاشىء أجل ولا أعظم منه (والإكرام) الذى يكرم عما لايليق به وقيل الذى يكرم عباده الصالحين بأنواع الكرامة فى الدنيا والآخرة والله أعلم .

قوله (فاعبده الخ) تضمنت هذه الآيات الكريمة جملة من صفات القلوب وهى نفى السمى والكفؤ والنديد والولد والشريك والولى من ذل وحاجة . كما تضمنت بعض صفات الإثبات من الملك والحمد والقدرة والكبرياء والتبارك .

أما قوله تعالى (هل تعلم له سميا) فقد قال شيخ الإسلام رحمه الله « قال أهل اللغة : هل تعلم له سميا ، أى نظيراً استحق مثل اسمه ويقال مسامياً يساميه ، وهذا معنى ما يروى عن ابن عباس « هل تعلم له سميا » ، مثلا أو شبيهاً) .

والاستفهام فى الآية إنكارى معناه النفى ، أى لا تعلم له سميا .

وأما قوله (ولم يكن له كفواً أحد) فالمراد بالكفؤ المكافىء

وقوله (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ـ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله)

المساوى . فهذه الآية تنفى عنه سبحانه النظير والشبيه من كل وجه لأن أحداً وقع نكرة فى سياق النفى فيعم ، وقد تقدم الكلام على تفسير سورة الإخلاص كلها فليرجع إليها .

وأما قوله (فلا تجعلوا لله أنداداً الخ) فالأنداد جمع ند ومعناه كما قيل النظير المناوىء ، ويقال ليس لله ند ولا ضد ، والمراد نفى ما يكافئه ويناوئه ، ونفى ما يضاده وينافيه .

وجملة (وأنتم تعلمون) وقعت حالا من الواو فى تجعلوا ، المعنى إذا كنتم تعلمون أن الله هو وحده الذى خلقكم ورزقكم وأن هذه الآلهة التى جعلتموها له نظراء وأمثالا وساويتموها به فى استحقاق العبادة لاتخلق شيئاً بل هى مخلوقة ولاتملك لكم ضراً ولا نفعاً فاتركوا عبادتها وأفردوه سبحانه بالعبادة والتعظيم .

وأما قوله (ومن الناس من يتخذ الخ) فهو إخبار من الله عن المشركين بأنهم يحبون آلهتهم كحبهم لله عز وجل ، يعنى يجعلونها مساوية له فى الحب ، والذين آمنوا أشد حباً لله ، من حب المشركين لآلهتهم لأنهم أخلصوا له الحب وأفردوه به . أما حب المشركين لآلهتهم فهو موزع بينها ، ولاشك أن الحب إذا كان لجهة واحدة كان أمكن وأقوى . وقيل : المعنى إنهم يحبون آلهتهم كحب المؤمنين لله والذين آمنوا أشد حباً لله من الكفار لأندادهم .

وقوله (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيراً — يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير) .

وأما قوله تعالى (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً) الآية ، فقد تقدم الكلام فى معنى الحمد ، وأنه الثناء باللسان على النعمة وغيرها ، وقلنا إن إثبات الحمد له سبحانه متضمن لإثبات جميع الكمالات التى لا يستحق الحمد المطلق إلا من بلغ غايتها .

ثم نفى سبحانه عن نفسه ما ينافى كمال الحمد من الولد والشريك والولى من الذل ، أى من فقر وحاجة ، فهو سبحانه لا يوالى أحداً من خلقه من أجل ذلة وحاجة إليه ، ثم أمر عبده ورسوله أن يكبره تكبيراً ، أى يعظمه تعظيما وينزهه عن كل صفة نقص وصفه بها أعداؤه من المشركين .

وأما قوله (يسبح لله ، الخ) فالتسبيح هو التنزيه والإبعاد عن السوء كما تقدم .

ولا شك أن جميع الأشياء فى السموات وفى الأرض تسبح بحمد ربها وتشهد له بكمال العلم والقدرة والعزة والحكمة والتدبير والرحمة قال تعالى (وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم)

وقد اختلف فى تسبيح الجمادات التى لا تنطق هل هو بلسان الحال أو بلسان المقال وعندى أن الثانى أرجح بدليل قوله تعالى

وقوله (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا . الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديرا) .

(ولكن لاتفقهون تسبيحهم) إذ لو كان المراد تسبيحها بلسان الحال لكان ذلك معلوماً فلا يصح الاستدراك ، وقد قال تعالى خبراً عن داود عليه السلام (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق والطير محشورة كل له أواب) .

وأما قوله تعالى (تبارك الذى الخ) فقد قلنا إن معنى تبارك من البركة وهى دوام الخير وكثرته ولكن لايلزم من تلك الزيادة سبق النقص ، فإن المراد تجدد الكمالات الاختيارية التابعة لمشيئته وقدرته ، فإنها تتجدد فى ذاته على وفق حكمته ، فالخلو عنها قبل اقتضاء الحكمة لها لايعتبر نقصاً .

وقد فسر بعضهم التبارك بالثبات وعدم التغير ، ومنه سميت البركة لثبوت مائها وهو بعيد ، والمراد بالفرقان القرآن ، سمى بذلك لقوة تفرقته بين الحق والباطل والهدى والضلال ، والتعبير (ينزّل) بالتشديد لإفادة التدرج فى النزول ، وأنه لم ينزل جملة واحدة ، والمراد بعبده محمد صلى الله عليه وسلم والتعبير عنه بلقب العبودية للتشريف كما سبق ، والعالمين جمع عالم ، وهو جمع لم يعقل ، واختلف فى المراد به ، فقيل الإنس ، وقيل الإنس والجن ، وهو

وقوله (ماتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون —

الصحيح ، فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل إلى الجن أيضاً ، وأنه يجتمع بهم ويقرأ عليهم القرآن ، وأن منهم نفراً أسلم حين سمع القرآن وذهب ينذر قومه به ، كما قال تعالى (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين) والنذير والمنذر هو من يُعلم بالشيء مع التخويف وضده البشير أو المبشر وهو من يخبرك بما يسرك .

وقوله (ماتخذ الله من ولد الخ) تضمنت هذه الآية الكريمة أيضاً جملة من صفات التنزيه التي يراد نفي مالايليق بالله عز وجل عنه ، فقد نزه سبحانه نفسه فيها عن اتخاذ الولد وعن وجود إله خالق معه وعما يصفه به المفترون الكذابون ، كما نهى عن ضرب الأمثال له والإشراك به بلا حجة ولا برهان ، والقول عليه سبحانه بلا علم ولا دليل .

فهذه الآية تضمنت إثبات توحيد الآلهية وإثبات توحيد الربوبية ، فإن الله بعد ما أخبر عن نفسه بعدم وجود إله معه أوضح ذلك بالبرهان القاطع والحجة الباهرة فقال (إذاً) أى إذ لو كان معه آلهة كما يقول هؤلاء المشركون لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض .

عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ، فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون .

وتوضيح هذا الدليل أن يقال : إذا تعددت الآلهة فلابد أن يكون لكل منهم خلق وفعل ولا سبيل إلى التعاون فيما بينهم فإن الاختلاف بينهم ضروري ، كما أن التعاون بينهم فى الخلق يقتضى عجز كل منهم عند الانفراد ، والعاجز لا يصلح إلهاً ، فلا بد أن يستقل كل منهم بخلقه وفعله ، وحينئذ فإما أن يكونوا متكافئين فى القدرة لا يستطيع كل منهم أن يقهر الآخرين ويغلبهم فيذهب كل منهم بما خلق ويختص بملكه كما يفعل ملوك الدنيا من انفراد كل بمملكته إذا لم يجد سبيلا لقهر الآخرين ، وإما أن يكون أحدهم أقوى من الآخرين فيغلبهم ويقهرهم وينفرد دونهم بالخلق والتدبير ، فلا بد إذاً مع تعدد الآلهة من أحد هذين الأمرين ، إما ذهاب كل بما خلق أو علو بعضهم على بعض .

وذهاب كل بما خلق غير واقع لأنه يقتضى التنافر والانفصال بين أجزاء العالم مع أن المشاهدة تثبت أن العالم كله كجسم واحد مترابط الأجزاء متسق الأنحاء فلا يمكن أن يكون إلا أثراً لإله واحد وعلو بعضهم على بعض يقتضى أن يكون الإله هو العالى وحده .

وأما قوله تعالى (فلا تضربوا لله الأمثال) فهو نهى له أن يشبهوه بشيء من خلقه فإنه سبحانه له المثل الأعلى الذى لا يشركه فيه مخلوق .

قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) .

وقدقدمنا أنه لايجوز أن يستعمل فى حقه من الأقيسة مايقتضى المماثلة أوالمساواة بينه وبين غيره كقياس التمثيل وقياس الشمول. وإنما يستعمل فى ذلك قياس الأولى الذى مضمونه أن كل كمال وجودى غير مستلزم للعدم ولاللنقص بوجه من الوجوه اتصف المخلوق ، فالخالق أولى أن يتصف به لأنه هو الذى وهب المخلوق ذلك الكمال ، ولأنه لو لم يتصف بذلك الكمال مع إمكان أن يتصف به لكان فى الممكنات من هو أكمل منه وهو محال وكذلك كل نقص يتنزه عنه المخلوق فالخالق أولى بالتنزه عنه .

وأما قوله (قل إنما حرم الخ) فإنما أداة قصر تفيداختصاص الأشياء المذكورة بالحرمة فيفهم أن من عداها من الطيبات فهو مباح لاحرج فيه ، كما أفادته الآية التى قبلها .

والفواحش جمع فاحشة وهى الفعلة المتناهية فى القبح وخصها بعضهم بماتضمن شهوة ولذة من المعاصى كالزنا واللواط ونحوهما من الفواحش الظاهرة ، وكالكبر والعجب وحب الرياسة من الفواحش الباطنة .

وأما الإثم فنهم من فسره بمطلق المعصية فيكون المراد منه مادون

وقوله (الرحمن على العرش استوى) فى سبع مواضع ، فى سورة الأعراف قوله (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش) وقال فى سورة يونس عليه السلام (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش) .

الفاحشة ، ومنهم من خصه بالخمر فإنها جماع الإثم ، وأما البغى بغير الحق فهو التسلط والاعتداء على الناس من غير أن يكون ذلك على جهة القصاص والمماثلة .

وقوله (وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً) وحرم أن تعبدوا مع الله غيره وتتقربوا إليه بأى نوع من أنواع العبادات والقربات كالدعاء والنذر والذبح والخوف والرجاء ونحو ذلك ، مما يجب أن يخلص فيه العبد قلبه ويسلم وجهه لله وحرم أن يتخذوا من دونه سبحانه أولياء يشرعون لهم من الدين مالم يأذن به الله فى عباداتهم ومعاملاتهم كما فعل أهل الكتاب مع الأحبار والرهبان حيث اتخذوهم أرباباً من دون الله فى التشريع فأحلوا ما حرم الله وحرموا ما أحل الله فاتبعوهم فى ذلك وقوله « ما لم ينزل به سلطاناً » قيد لبيان الواقع ، فإن كل ما عبد أو اتبع أو أطيع من دون الله قد فعل به ذلك من غير سلطان .

وأما القول على الله بلا علم فهو باب واسع جداً يدخل فيه كل

خبر عن الله بلا دليل ولا حجة ، كنفى ما أثبته أو إثبات ما نفاه أو الإلحاد فى آياته بالتحريف والتأويل .

قال العلامة ابن القيم فى كتابه أعلام الموقعين (وقد حرم الله القول عليه بغير علم فى الفتيا والقضاء وجعله من أعظم المحرمات بل جعله فى المرتبة العليا منها قال تعالى (قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن) الآية ، فرتب المحرمات أربع مراتب وبدأ بأسهلها وهو الفواحش وثنى بما هو أشد تحريماً منه وهو الإثم والظلم ثم ثلث بما هو أعظم تحريماً منها وهو الشراك به سبحانه ثم ربع بما هو أعظم تحريماً من ذلك كله وهو القول عليه بلا علم وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم فى أسمائه وصفاته وأفعاله وفى دينه وشرعه .

وقوله (الرحمن على العرش استوى الخ) هذه هى المواضع السبعة التى أخبر فيها سبحانه باستوائه على العرش وكلها قطعية الثبوت ، لأنها من كتاب الله ، فلا يملك الجهمى المعطل لها رداً ولا إنكاراً ، كما أنها صريحة فى بابها لا تحتمل تأويلا ، فإن لفظ استوى فى اللغة إذا عدى بعلى لا يمكن أن يفهم منه إلا العلو والارتفاع ، ولهذا لم تخرج تفسيرات السلف لهذا اللفظ عن أربع عبارات ، ذكرها العلامة ابن القيم فى النونية حيث قال :

فلهم عبارات عليها أربع ... قد حصلت للفارس الطعان
وهى استقر وقد علا وكذلك ار ... تفع الذى ما فيه من نكران
وكذاك قد صعد الذى هو رابع ... وأبو عبيدة صاحب الشيبانى

وقال فى سورة الرعد (الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش) وقال فى سورة طه (الرحمن على العرش استوى) وقال فى سورة الفرقان (ثم استوى على العرش) .

يختار هذا القول فى تفسيره   أدرى من الجهمى بالقرآن

فأهل السنة والجماعة يؤمنون بما أخبر به سبحانه عن نفسه من أنه مستو على عرشه بائن من خلقه بالكيفية التى يعلمها هو جل شأنه كما قال مالك وغيره (الاستواء معلوم والكيف مجهول) وأما ما يشغب به أهل التعطيل من إيراد اللوازم الفاسدة على تقرير الاستواء فهى لا تلزمنا لأننا لا نقول بأن فوقيته على العرش كفوقية المخلوق على المخلوق

وأما ما يحاولون به صرف هذه الآيات الصريحة عن ظواهرها بالتأويلات الفاسدة التى تدل على حيرتهم واضطرابهم كتفسيرهم استوى باستولى أو حملهم (على) على معنى إلى واستوى بمعنى قصد إلى آخر ما نقله عنهم حامل لواء التجهم والتعطيل زاهد الكوثرى فكلها تشغيب بالباطل وتغيير فى وجه الحق لا يغنى عنهم فى قليل ولا كثير وليت شعرى ماذا يريد هؤلاء المعطلة أن يقولوا ؟ أيريدون أن يقولوا ليس فى السماء رب يقصد ولا فوق العرش إله يعبد؟ فأين يكون إذن ؟ ولعلهم يضحكون منا حين نسأل عنه بأين ، ونسوا أن أكمل الخلق وأعلمهم بربهم صلوات الله عليه وسلامه قد سأل عنه بأين حين قال للجارية أين الله ؟ ورضى جوابها حين قالت فى السماء ، وقد أجاب

وقال فى سورة آلم السجدة (الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى سته أيام ثم استوى على العرش) وقال فى سورة الحديد (هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش)

كذلك من سأله بأين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض بأنه كان فى عماء ، الحديث ، ولم يرو عنه أنه زجر السائل ولا قال له نك غلطت فى السؤال .

إن قصارى مايقوله المتحذلق منهم فى هذا الباب أن الله تعالى كان ولا مكان ، ثم خلق المكان وهو الآن على ما كان قبل خلق المكان

فماذا يعنى هذا المخرف بالمكان الذى كان الله ولم يكن ؟ هل يعنى به تلك الأمكنه الوجودية التى هى داخل محيط العالم ؟ فهذه أمكنة حادثة ونحن لانقول بوجود الله فى شىء منها إذ لايحصره ولا يحيط به شىء من مخلوقاته .

وأما إذا أراد بها المكان العدمى الذى هو خلاء محض لاوجود فيه ، فهذا لايقال إنه لم يكن ثم خلق ، إذا لايتعلق به الخلق فإنه أمر عدمى — فإذا قيل إن الله فى مكان بهذا المعنى كما دلت عليه الآيات والأحاديث فأى محذور فى هذا ؟

بل الحق أن يقال كان الله ولم يكن شىء قبله ثم خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ثم استوى على العرش ، وثم هنا للترتيب الزمانى لا لمجرد العطف .

وقوله (ياعيسى الخ) هذه الآيات جاءت مؤيدة لما دلت عليه

وقوله (ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى - بل رفعه الله إليه — إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه — ياهامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب —

الآيات السابقة من علوه تعالى وارتفاعه فوق العرش مبايناً للخلق ، وناعية على المعطلة جحودهم وإنكارهم لذلك ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . ففى الآية الأولى ينادى الله رسوله وكلمته عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام بأنه متوفيه ورافعه إليه حين دبر اليهود قتله ، والضمير فى قوله إلىّ هو ضمير الرب جل شأنه لا يحتمل غير ذلك ، فتأويله بأن المراد إلى محل رحمتى أو مكان ملائكتى الخ لامعنى له ومثل ذلك يقال أيضاً فى قوله سبحانه رداً على ما ادعاه اليهود من قتل عيسى وصلبه (بل رفعه الله إليه) .

وقد اختلف فى المراد بالتوفى المذكور فى الآية فحمله بعضهم على الموت ، والأكثرون على أن المراد به النوم ، ولفظ التوفى يستعمل فيه قال تعالى (وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار) .

ومنهم من زعم أن فى الكلام تقديماً وتأخيراً وأن التقدير إنى رافعك ومتوفيك ، أى مميتك بعد ذلك . والحق إنه عليه السلام رفع حياً وانه سينزل قرب قيام الساعة لصحة الحديث بذلك .

وأما قوله سبحانه (إليه يصعد الكلم الطيب) فهو صريح أيضاً فى صعود أقوال العباد وأعمالهم إلى الله عز وجل يصعد بها الكرام

أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذباً .

وقوله (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ، أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير)

الكاتبون كل يوم عقب صلاة العصر وعقب صلاة الفجر كما جاء فى الحديث فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون يا ربنا أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون .

وأما قوله سبحانه حكاية عن فرعون (ياهامان الخ) فهو دليل على أن موسى عليه السلام أخبر فرعون الطاغية بأن إلهه فى السماء فأراد أن يتلمس الأسباب للوصول إليه تمويها على قومه ، فأمر وزيره هامان أن يبنى له الصرح ، ثم عقب على ذلك بقوله (وإنى لأظنه) أى موسى كاذباً فيما أخبر به من كون إلهه فى السماء . فمن إذاً أشبه بفرعون وأقرب إليه نسباً ؟ نحن أم هؤلاء المعطلة إن فرعون كذب موسى فى كون إلهه فى السماء ، وهو نفس مايقوله هؤلاء .

قوله (أأمنتم الخ) هاتان الآيتان فيهما التصريح بأن الله عز وجل فى السماء ولا يجوز حمل ذلك على أن المراد به العذاب أو الأمر أو الملك كما يفعل المعطلة لأنه قال من ، وهى للعاقل ، وحملها على الملك إخراج اللفظ عن ظاهره بلا قرينة توجب ذلك .

ولا يجوز أن يفهم من قوله فى السماء أن السماء ظرف له سبحانه بل إن أريد بالسماء هذه المعروفة ، ففى بمعنى على كما فى قوله تعالى

(هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها وماينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) .

(لأصلبنكم فى جذوع النخل) وإن أريد بها جهة العلو فهى على حقيقتها فإنه سبحانه فى أعلى العلو .

قوله (هو الذى خلق السموات الخ) تضمنت هذه الآية الكريمة إثبات صفة المعية له عز وجل وهى على نوعين :

١ — معية عامة : شاملة لجميع المخلوقات ، فهو سبحانه مع كل شىء بعلمه وقدرته وقهره وإحاطته ، لايغيب عنه شىء ولا يعجزه ، وهذه هى المعية المذكورة فى الآية .

فى هذه الآية يخبر عن نفسه سبحانه بأنه هو وحده الذى خلق السموات والأرض يعنى أوجدهما على تقدير وترتيب سابق فى مدة ستة أيام ، ثم علا بعد ذلك وارتفع على عرشه لتدبير أمور خلقه ، وهو مع كونه فوق عرشه لايغيب عنه شىء من العالمين العلوى والسفلى ، فهو يعلم مايلج ، أى يدخل فى الأرض ، وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج ، أى يصعد فيها ـ ولا شك أن من كان علمه وقدرته محيطين بجميع الأشياء فهو مع كل شىء ، ولذلك قال (وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) .

قوله (مايكون من نجوى الخ) يثبت سبحانه شمول علمه وإحاطته

وقوله (مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم - لاتحزن إن الله معنا)

بجميع الأشياء ، وأنه لايخفى عليه نجوى المتناجين ، وأنه شهيد على الأشياء كلها مطلع عليها .

وإضافة « نجوى » إلى ثلاثة من إضافة الصفة إلى الموصوف والتقدير مايكون من ثلاثة نجوى ، أى متناجين .

وأما الآيات الباقية فهى فى إثبات المعية الخاصة التى هى معيته لرسله تعالى وأوليائه بالنصر والتأييد والمحبة والتوفيق والإلهام .

فقوله تعالى(لاتحزن إن الله معنا) حكاية عما قاله عليه الصلاة والسلام لأبى بكر الصديق وهما فى الغار ، فقد أحاط المشركون بفم الغار عندما خرجوا فى طلبه عليه السلام ، فلما رأى أبو بكر ذلك انزعج وقال : والله يارسول الله لو نظر أحدهم تحت قدمه لأبصرنا ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم ماحكاه الله عز وجل هنا (لاتحزن إن الله معنا) .

فالمراد بالمعية هنا معية النصر والعصمة من الأعداء .

وأما قوله (إننى معكما أسمع وأرى) فقد تقدم الكلام ؟ وإنها خطاب لموسى وهارون عليهما السلام أن لا يخافا بطش فرعون بهما ، لأن الله عز وجل معهما بنصره وتأييده .

وقوله (إننى معكما أسمع وأرى - إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون - واصبروا إن الله مع الصابرين - كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين .

وقوله (ومن أصدق من الله حديثاً - ومن أصدق من الله قيلا)

وكذلك بقية الآيات يخبر الله فيها عن معيته للمتقين الذين يراقبون الله عز وجل فى أمره ونهيه ويحفظون حدوده وللمحسنين الذين يلتزمون الإحسان فى كل شىء ، والإحسان فى كل شىء بحسبه فهو فى العبادة مثلا أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك كما جاء فى حديث جبريل عليه السلام .

وكذلك يخبر عن معيته للصابرين الذين يحبسون أنفسهم على ما تكره ويتحملون المشاق والأذى فى سبيل الله وابتغاء وجهه صبراً على طاعة الله وصبراً عن معصيته وصبراً على قضائه .

تضمنت هذه الآيات إثبات صفة الكلام لله عز وجل .

وقد تنازع الناس حول هذه المسألة نزاعاً كبيراً . فنهم من جعل كلامه سبحانه مخلوقاً منفصلا منه ، وقال إن معنى متكلم خالق للكلام وهم المعتزلة . ومنهم من جعله لازماً لذاته أزلا وأبداً لا يتعلق بمشيئته وقدرته ونفى عنه الحرف والصوت وقال إنه معنى واحد فى الأزل ، وهم الكلابية والأشعرية .

ومنهم من زعم أنه حروف وأصوات قديمة لازمة للذات ،

(وإذ قال الله ياعيسى بن مريم - وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا) وقوله (وكلم الله موسى تكليما - منهم من كلم الله - ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه - وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا)

وقال إنها مقترنة فى الأزل ، فهو سبحانه لايتكلم بها شيئاً بعد شيء وهم بعض الغلاة .

ومنهم من جعله حادثاً قائماً بذاته تعالى ومتعلقاً بمشيئته وقدرته ولكن زعم أن له ابتداء فى ذاته وأن الله لم يكن متكلماً فى الأزل ، وهم الكرامية . ويطول بنا القول لو اشتغلنا بمناقشة هذه الأقوال وإفسادها على أن فسادها بين لكل ذى فهم سليم ونظر مستقيم .

وخلاصة مذهب أهل السنة والجماعة فى هذه المسألة أن الله تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء ، وأن الكلام صفة له قائمة بذاته يتكلم بها بمشيئته وقدرته ، فهو لم يزل ولا يزال متكلماً إذا شاء وما تكلم الله به فهو قائم به ليس مخلوقاً منفصلا عنه كما تقول المعتزلة ولا لازماً لذاته لزوم الحياة لها كما تقول الأشاعرة بل هو تابع لمشيئته وقدرته .

والله سبحانه نادى موسى بصوت ونادى آدم وحواء بصوت ، وينادى عباده يوم القيامة بصوت ويتكلم بالوحى بصوت ، ولكن الحروف والأصوات التى تكلم الله بها صفة له غير مخلوقة ولا تشبه أصوات المخلوقين وحروفهم ، كما أن علم الله القائم بذاته ليس مثل علم عباده ، فإن الله لا يماثل المخلوقين فى شيء من صفاته .

وقوله (وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين ـ وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة) .

والآيتان الأوليان هنا وهما من سورة النساء تنفيان أن يكون أحد أصدق حديثاً وقولا من الله عز وجل ، بل هو سبحانه أصدق من كل أحد فى كل مايخبر به ، وذلك لأن علمه بالحقائق المخبر عنها أشمل وأضبط ، فهو يعلمها على ماهى به من كل وجه ، وعلم غيره ليس كذلك .

وأما قوله (وإذا قال الله ياعيسى الخ) فهو حكاية لما سيكون يوم القيامة من سؤال الله لرسوله وكلمته عيسى عما نسبه إليه الذين ألهوه وأمه من النصارى من أنه هو الذى أمرهم بأن يتخذوه وأمه إلهين من دون الله . وهذا السؤال لإظهار براءة عيسى عليه السلام وتسجيل الكذب والبهتان على هؤلاء الضالين الأغبياء .

وأما قوله (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا) فالمراد صدقاً فى إخباره وعدلا فى أحكامه لأن كلامه تعالى إما أخبار وهى كلها فى غاية الصدق ، وإما أمر ونهى وكلها فى غاية العدل الذى لاجور فيه لابتنائها على الحكمة والرحمة ، والمراد بالكلمة هنا الكلمات لأنها أضيفت إلى معرفة فتفيد معنى الجمع كما فى قولنا رحمة الله ونعمة الله .

وأما قوله (وكلم الله موسى تكليما) ومابعدها من الآيات التى تدل على أن الله قد نادى موسى وكلمه تكليما ، وناجاه حقيقة من وراء حجاب وبلا واسطة ملك ، فهى ترد على الأشاعرة الذين يجعلون الكلام معنى قائماً بالنفس بلا حرف ولا صوت ، فيقال لهم كيف

وقوله (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ـ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ـ وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون ـ يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل ـ واتل ماأوحى إليك من كتاب ربك لامبدل لكلماته) .

سمع موسى هذا الكلام النفسى ؟ فإن قالوا ألقى الله فى قلبه علماً ضرورياً بالمعانى التى يريد أن يكلمه بها لم يكن هناك خصوصية لموسى فى ذلك ، وإن قالوا إن الله خلق كلاماً فى الشجرة أو فى الهواء ونحو ذلك لزم أن تكون الشجرة هى التى قالت لموسى (إنى أنا ربك) .

وكذلك ترد عليهم هذه الآيات فى جعلهم الكلام معنى واحداً فى الأزل لايحدث منه فى ذاته شىء ، فان الله يقول (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) فهى تفيد حدوث الكلام عند مجىء موسى للميقات ، ويقول (وناديناه من جانب الطور الأيمن) فهذا يدل على حدوث النداء عند جانب الطور الأيمن ، والنداء لايكون إلا صوتاً مسموعاً . وكذلك قوله تعالى فى شأن آدم وحو (وناداهما ربهما) الآية ، فإن هذا النداء لم يكن إلا بعد الوقوع فى الخطيئة فهو حادث قطعاً . وكذلك قوله تعالى (ويوم يناديهم الخ) فإن هذا النداء والقول سيكون يوم القيامة ، وفى الحديث « ما من عبد إلا سيكلمه الله يوم القيامة ليس بينه ترجمان » .

قوله (وإن أحد من المشركين الخ) هذه الآيات الكريمة تفيد

وقوله (إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون . وهذا كتاب أنزلناه مبارك ـ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ـ وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لايعلمون .

أن القرآن المتلو المسموع المكتوب بين دفتى المصحف هو كلام الله على الحقيقة وليس فقط عبارة أو حكاية عن كلام الله كما يقوله الأشعرية ، وإضافته إلى الله عز وجل تدل على أنه صفة له قائمة به وليست كإضافة البيت أو الناقة ، فإنها إضافة معنى إلى الذات تدل على ثبوت المعنى لتلك الذات بخلاف إضافة البيت أو الناقة فإنها إضافة أعيان ـ وهذا يرد على المعتزلة فى قولهم إنه مخلوق منفصل عن الله ، ودلت هذه الآيات أيضاً على أن القرآن منزل من عند الله بمعنى أن الله تكلم به بصوت سمعه جبريل عليه السلام ، فنزل به وأداه إلى رسول الله ﷺ كما سمعه من الرب جل شأنه .

وخلاصة القول فى ذلك أن القرآن العربى كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود ، والله تكلم به على الحقيقة ، فهو كلامه حقيقة لا كلام غيره وإذا قرأ الناس القرآن أو كتبوه فى المصاحف لم يخرج ذلك عن أن يكون كلام الله ، فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئاً لا إلى من بلغه مؤدياً والله تكلم بحروفه ومعانيه بلفظ نفسه ليس شىء منه كلاماً لغيره لا لجبريل ولا لمحمد ولا لغيرهما والله تكلم به أيضاً بصوت نفسه ، فإذا قرأه العباد قرأوه بصوت

قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين . ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) وقوله (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ـ على الأرائك ينظرون ـ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة)

أنفسهم ، فإذا قال القارىء مثلا (الحمد لله رب العالمين) كان هذا الكلام المسموع منه كلام الله لا كلام نفسه وكان هو قرأه بصوت نفسه لا بصوت الله . وكما أن القرآن كلام فكذلك هو كتابه لأنه كتبه فى اللوح المحفوظ ولأنه مكتوب فى المصاحف قال تعالى (إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون) وقال (إنه لقرآن مجيد فى لوح محفوظ) وقال (فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدى سفرة كرام بررة)

والقرآن فى الأصل مصدر كالقراءة ، كما فى قوله تعالى (إن قرآن الفجر كان مشهوداً) .

ويراد به هنا أن يكون علماً على هذا المنزل من عند الله المكتوب بين دفتى المصحف المتعبد بتلاوته المتحدى بأقصر سورة منه .

وقوله (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) يدل على أن ابتداء نزوله من عند الله عز وجل ، وأن روح القدس جبريل عليه السلام تلقاه عن الله سبحانه بالكيفية التى يعلمها .

قوله (وجوه يومئذ ناضرة الخ) هذه الآيات تثبت رؤية المؤمنين لله عز وجل يوم القيامة فى الجنة .

وقد نفاها المعتزلة بناء على نفيهم الجهة عن الله لأن المرئى يجب

وقوله (لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد) .

أن يكون فى جهة من الرائى ، ومادامت الجهة مستحيلة وهى شرط فى الرؤية فالرؤية كذلك مستحيلة ، واحتجوا من النقل بقوله تعالى (لاتدركه الأبصار) وقوله لموسى عليـه السلام حين سأله الرؤية (لن ترانى ولـكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى)

وأما الأشاعرة فهم مع نفيهم الجهة كالمعتزلة يثبتون الرؤية ، ولذلك حاروا فى تفسير تلك الرؤية ، فنهم من قال يرونه من جميع الجهات ومنهم من جعلها رؤية بالبصيرة لا بالبصر ، وقال المقصود زيادة الانـكشاف والتجلى حتى كأنها رؤية عين .

وهذه الآيات التى أوردها المؤلف حجة على المعتزلة فى نفيهم الرؤية . فإن الآية الأولى عدى النظر فيها بإلى فيكون بمعنى الإبصار يقال نظرت إليه وأبصرته بمعنى ومتعلق النظر هو الرب جل شأنه .

وأما ما يتكلفه المعتزلة من جعلهم (ناظرة) بمعنى منتظرة وإلى بمعنى النعمة والتقدير ثواب ربها منتظرة فهو تأويل مضحك .

وأما الآية الثانية فتفيد أن أهل الجنـة وهم على أرائـكهم ، يعنى أسرتهم ، جمع أريكة ينظرون إلى ربهم .

وأما الآيتان الأخيرتان فقد صح عن النبى ﷺ تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله عز وجل ويشهد لذلك أيضاً قوله تعالى فى حق الـكفار (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) فدل حجب هؤلاء

وهذا الباب فى كتاب الله كثير . من تدبر القرآن طالباً للهدى منه تبين له طريق الحق .

على أن أولياءه يرونه ، وأحاديث الرؤية متواترة فى المعنى عند أهل العلم بالحديث لاينكرها إلا ملحد زنديق .

وأما ما احتج به المعتزلة من قوله تعالى (لاتدركه الأبصار) فلا حجة لهم فيه ، لأن نفى الإدراك لايستلزم نفى الرؤية ، فالمراد أن الأبصار تراه ولكن لاتحيط به رؤية كما أن العقول تعلمه ولكن لاتحيط به علماً ، لأن الإدراك هو الرؤية على جهة الإحاطة فهو رؤية خاصة ونفى الخاص لايستلزم نفى مطلق الرؤية وكذلك استدلالهم على نفى الرؤية بقوله تعالى لموسى عليه السلام (لن ترانى) لايصلح دليلا بل الآية تدل على الرؤية من وجوه كثيرة منها :

١ — وقوع السؤال من موسى وهو رسول الله وكليمه ، وهو أعلم بما يستحيل فى حق الله من هؤلاء المعتزلة ، فلو كانت الرؤية ممتنعة لما طلبها .

٢ — أن الله عز وجل علق الرؤية على استقرار الجبل حال التجلى وهو ممكن والمعلق على الممكن ممكن .

٣ — أن الله تجلى للجبل بالفعل وهو جماد ، فلايمتنع إذاً أن يتجلى لأهل محبته وأصفيائه .

وأما قولهم إن (لن) لتأبيد النفى وأنها تدل على عدم وقوع الرؤية أصلا فهو كذب على اللغة، فقد قال تعالى حكاية عن الكفار (ولن يتمنوه أبداً) ثم قال (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك) فأخبر عن عدم تمنيهم للموت بلن ثم أخبر عن تمنيهم له وهم فى النار .

وإذاً فمعنى قوله (لن ترانى) لن تستطيع رؤيتى فى الدنيا لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته سبحانه ، ولو كانت الرؤية ممتنعة لذاتها لقال إنى لا أرى أو لا يجوز رؤيتى أو لست بمرئى ونحو ذلك والله أعلم .

(مباحث عامة حول آيات الصفات)

إن الناظر فى آيات الصفات التى ساقها المؤلف ـ رحمه الله ـ يستطيع أن يستنبط منها قواعد وأصولا هامة يجب الرجوع اليها فى هذا الباب .

الأصل الأول : اتفق السلف على أنه يجب الإيمان بجميع الأسماء الحسنى وما دلت عليه من الصفات وما ينشأ عنها من الأفعال ، مثال ذلك القدرة مثلا يجب الإيمان بانه سبحانه على كل شىء قدير . والإيمان بكمال قدرته ، والإيمان بأن قدرته نشأت عنها جميع الكائنات ، وهكذا بقية الأسماء الحسنى على هذا النمط . وعلى هذا فما ورد فى هذه الآيات التى ساقها المصنف من الأسماء الحسنى فانها داخلة فى الإيمان بالاسم ، وما فيها من ذكر الصفات مثل عزة الله وقدرته

وعلمه وحكمته وإرادته ومشيئته فإنها داخلة فى الإيمان بالصفات وما فيها من ذكر الأفعال المطلقة والمقيدة ، مثل يعلم كذا ويحكم ما يريد ، ويرى ويسمع ، وينادى ويناجى ، وكلم ويكلم ، فإنها داخلة فى الإيمان بالأفعال .

الأصل الثانى : دلت هذه النصوص القرآنية على أن صفات البارى قسمان .

١ — صفات ذاتية لاتنفك عنها الذات ، بل هى لازمة لها أزلا وأبداً ولا تتعلق بها . مشيئته تعالى وقدرته ، وذلك كصفات الحياة والعلم والقدرة والقوة والعزة والملك والعظمة والكبرياء والمجد والجلال إلخ .

٢ — صفات فعلية تتعلق بها مشيئته وقدرته كل وقت وآن وتحدث بمشيئته وقدرته ، آحاد تلك الصفات من الأفعال وإن كان هو لم يزل موصوفاً بها بمعنى أن نوعها قديم وأفرادها حادثة ، فهو سبحانه لم يزل فعالا لما يريد ، ولم يزل ولا يزال يقول ويتكلم ويخلق ويدبر الأمور وأفعاله تقع شيئاً فشيئاً تبعاً لحكمته وإرادته فعلى المؤمن الإيمان بكل ما نسبه الله لنفسه من الأفعال المتعلقة بذاته كالاستواء على العرش والمجىء والإتيان والنزول إلى السماء الدنيا ، والضحك والرضى والغضب والكراهية والمحبة المتعلقة بخلقه كالخلق والرزق والإحياء والإماتة وأنواع التدبير المختلفة .

الأصل الثالث : إثبات تفرد الرب جل شأنه بكل صفة كمال وأنه ليس له شريك أو مثيل فى شيء منها .

وما ورد فى الآيات السابقة من إثبات المثل الأعلى له وحده ونفى الند والمثل والكفؤ والسمى والشريك عنه يدل على ذلك كما يدل على أنه منزه عن كل نقص وعيب وآفة .

الأصل الرابع : إثبات جميع ما ورد به الكتاب والسنة من الصفات ، لافرق بين الذاتية منها كالعلم والقدرة والإرادة والحياة والسمع والبصر ونحوها ، والفعلية كالرضا والمحبة والغضب والكراهة ، وكذلك لافرق بين إثبات الوجه واليدين ونحوهما ، وبين الاستواء على العرش والنزول ، فكلها مما اتفق السلف على إثباته بلا تأويل ولا تعطيل ، وبلا تشبيه وتمثيل .

والمخالف فى هذا الأصل فريقان :

١ — الجهمية : ينفون الأسماء والصفات جميعاً .

٢ — المعتزلة : فإنهم ينفون جميع الصفات ويثبتون الأسماء والأحكام ، فيقولون عليم بلا علم وقدير بلا قدرة وحى بلا حياة الخ . وهذا القول فى غاية الفساد ، فإن إثبات موصوف بلا صفة وإثبات ما للصفة للذات المجردة محال فى العقل كما هو باطل فى الشرع .

أما الأشعرية ومن تبعهم فإنهم يوافقون أهل السنة فى إثبات سبع صفات يسمونها صفات المعانى ويدعون ثبوتها بالعقل وهى

(فصــــل)

ثم فى سنة رسول الله ﷺ ، فالسنة تفسر القرآن وتبينه وتدل عليه وتعبر عنه .

الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام ، ولكنهم وافقوا المعتزلة فى نفى ما عدا هذه السبع من الصفات الخبرية التى صح بها الخبر .

والكل محجوجون بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة والقرون المفضلة على الإثبات العام .

قوله (ثم فى سنة رسول الله) عطف على قوله فيما تقدم ؛ وقد دخل فى هذه الجملة ما وصف الله به نفسه فى سورة الإخلاص الخ يعنى ودخل فيها ما وصف به الرسول ﷺ ربه فيما وردت به السنة الصحيحة .

والسنة هى الأصل الثانى الذى يجب الرجوع إليه ، والتعويل عليه بعد كتاب الله عز وجل قال تعالى (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة) والمراد بالحكمة السنة ، وقال (ويعلمهم الكتاب والحكمة) وقال آمراً لنساء نبيه (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة) وقال سبحانه (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وقال صلوات الله وسلامه عليه وآله (ألا إنى أوتيت القران ومثله معه) وحكم السنة حكم القرآن فى ثبوت العلم واليقين والاعتقاد

وما وصف الرسول به ربه عز وجل من الأحاديث الصحاح التى تلقاها أهل المعرفة بالقبول وحب الإيمان بها كذلك .

والعمل ، فإن السنة توضيح للقرآن وبيان للمراد منه تفصل مجمله وتقيد مطلقه وتخصص عمومه ، كما قال تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) .

وأهل البدع والأهواء بإزاء السنة الصحيحة فريقان :

١ — فريق لا يتورع عن ردها وإنكارها إذا وردت بما يخالف مذهبه بدعوى أنها أحاديث آحاد لاتفيد إلا الظن ، والواجب فى باب الاعتقاد هو اليقين ، وهؤلاء هم المعتزلة والفلاسفة .

٢ — وفريق يثبتها ويعتقد بصحة النقل ولكنه يشتغل بتأويلها كما يشتغل بتأويل آيات الكتاب حتى يخرجها عن معانيها الظاهرة إلى ما يريده من معان بالإلحاد والتحريف ، وهؤلاء هم متأخرو الأشعرية وأكثرهم توسعاً فى هذا الباب الغزالى والرازى .

قوله (وماوصف الرسول به الخ) يعنى أنه كما وجب الإيمان بكل ما وصف الله به نفسه فى كتابه من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، كذلك يجب الإيمان بكل ماوصفه به أعلم الخلق بربه وبما يجب له وهو رسوله الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه وآله .

قوله (كذلك) أى إيماناً مثل ذلك الإيمان خالياً من التحريف

فمن ذلك مثل قوله ﷺ « ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول من يدعونى فأستجيب له ؟ من يسألنى فأعطيه ؟ من يستغفرنى فأغفر له ؟ » متفق عليه .

والتعطيل ومن التكييف والتمثيل بل إثبات لها على الوجه اللائق بعظمة الرب جل شأنه .

قوله (فمن ذلك مثل قوله ﷺ الخ) الكلام على هذا الحديث من جهتين (الأولى) صحته من جهة النقل وقد ذكر المؤلف رحمه الله أنه متفق عليه . ويقول الذهبى فى كتابه « العلو للعلى الغفار » إن أحاديث النزول متواترة تفيد القطع ، وعلى هذا فلا مجال لإنكار أو جحود .

(الثانية) مايفيده هذا الحديث وهو إخباره ﷺ بنزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة الخ . ومعنى هذا أن النزول صفة لله عز جل على مايليق بجلاله وعظمته ، فهو لايماثل نزول الخلق كما أن استواءه لايماثل استواء الخلق .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله فى تفسير سورة الإخلاص :

«فالرب سبحانه إذا وصفه رسوله بأنه ينزل إلى سماء الدنيا كل ليلة وأنه يدنو عشية عرفة إلى الحجاج وأنه كلم موسى فى الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة وأنه استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً لم يلزم من ذلك أن

وقوله ﷺ « لله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن التائب من أحدكم براحلته » الحديث متفق عليه .

تكون هذه الأفعال من جنس مانشاهده من نزول هذه الأعيان المشهودة حتى يقال ذلك يستلزم تفريغ مكان وشغل آخر .

فأهل السنة والجماعة يؤمنون بالنزول صفة حقيقية لله عز وجل على الكيفية التي يشاء فيثبتون النزول كما يثبتون جميع الصفات التي ثبتت في الكتاب والسنة ، ويقفون عند ذلك فلا يكيفون ولا يمثلون ولا ينفون ولا يعطلون ، ويقولون إن الرسول أخبرنا أنه ينزل ولكنه لم يخبرنا كيف ينزل ، وقد علمنا أنه فعال لما يريد ، وأنه على كل شيء قدير .

ولهذا ترى خواص المؤمنين يتعرضون في هذا الوقت الجليل لألطاف ربهم ومواهبه ، فيقومون لعبوديته خاضعين خاشعين داعين متضرعين يرجون منه حصول مطالبهم التي وعدهم بها على لسان رسوله ﷺ .

قوله (لله أشد فرحاً الخ) تتمة هذا الحديث كما في البخاري وغيره « لله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل بأرض فلاة دوية مهلكة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه فنزل عنها فنام وراحلته عند رأسه فاستيقظ وقد ذهبت ، فذهب في طلبها فلم يقدر عليها حتى أدركه الموت من العطش فقال والله لأرجعن فلأموتن حيث

وقوله ﷺ « يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة » متفق عليه .

كان رحلى فرجع فنام فاستيقظ فإذا راحلته عند رأسه فقال اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » .

وفى هذا الحديث إثبات صفة الفرح لله عز وجل والكلام فيه كالكلام فى غيره من الصفات أنه صفة حقيقية لله عز وجل على ما يليق به ، وهو من صفات الفعل التابعة لمشيئته تعالى وقدرته ، فيحدث له هذا المعنى المعبر عنه بالفرح عندما يحدث عبده التوبة والإنابة إليه وهو مستلزم لرضاه عن عبده التائب وقبوله توبته . وإذا كان الفرح فى المخلوق على أنواع فقد يكون فرح خفة وسرور وطرب وقد يكون فرح أشر وبطر ، فالله عز وجل منزه عن ذلك كله ، ففرحه لا يشبه فرح أحد من خلقه لا فى ذاته ولا فى أسبابه ولا فى غاياته . فسببه كمال رحمته وإحسانه التى يحب من عباده أن يتعرضوا لها ، وغايته إتمام نعمته على التائبين المنيبين .

وأما تفسير الفرح بلازمه وهو الرضى وتفسير الرضا بإرادة الثواب ، فكل ذلك نفى وتعطيل لفرحه ورضاه سبحانه ، أوجبه سوء ظن هؤلاء المعطلة بربهم حيث توهموا أن هذه المعانى تكون فيه كما هى فى المخلوق ـ تعالى الله عن تشبيههم وتعطيلهم .

قوله (يضحك الله إلى رجلين الخ) : يثبت أهل السنة والجماعة الضحك لله عز وجل كما أفاده هذا الحديث وغيره على المعنى الذى يليق به سبحانه والذى لايشبهه ضحك المخلوقين عندما يستخفهم الفرح أو يستفزهم الطرب ، بل هو معنى يحدث فى ذاته عند وجود مقتضيه ، وإنما يحدث بمشيئته وحكمته ، فإن الضحك إنما ينشأ فى المخلوق عند إدراكه لأمر عجيب يخرج عن نظائره ، وهذه الحالة المذكورة فى هذا الحديث ، كذلك فإن تسليط الكافر على قتل المسلم مدعاة فى بادىء الرأى لسخط الله على هذا الكافر وخذلانه ومعاقبته فى الدنيا والآخرة ، فإذا من الله على هذا الكافر بعد ذلك بالتوبة وهداه للدخول فى الإسلام وقاتل فى سبيل الله حتى يستشهد فيدخل الجنة كان ذلك من الأمور العجيبة حقاً .

وهذا من كمال رحمته وإحسانه وسعة فضله على عباده سبحانه، فإن المسلم يقاتل فى سبيل الله ويقتله الكافر ، فيكرم الله المسلم بالشهادة ، ثم يمن على ذلك القاتل فيهديه للإسلام والاستشهاد فى سبيله فيدخلان الجنة جميعاً .

وأما تأويل ضحكه سبحانه بالرضا أو القبول أو أن الشىء حل عنده بمحل مايضحك منه ، وليس هناك فى الحقيقة ضحك فهو نفى لما أثبته رسول الله ﷺ لربه فلا يلتفت إليه .

وقوله «عجب ربنا من قنوط عباده وقرب خيره ، ينظر إليكم أزلين قنطين فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب» حديث حسن .

قوله (عجب ربنا الخ) هذا الحديث يثبت لله عز وجل صفة العجب وفى معناه قوله عليه الصلاة والسلام «عجب ربك من شاب ليس له صبوة» ، وقرأ ابن مسعود رضى الله عنه «بل عجبت ويسخرون» بضم التاء على أنها ضمير الرب جل شأنه .

وليس عجبه سبحانه ناشئاً عن خفاء فى الأسباب أو جهل بحقائق الأمور كما هو الحال فى عجب المخلوقين بل هو معنى يحدث لله سبحانه على مقتضى مشيئته وحكمته وعند وجود مقتضيه ، وهو الشيء الذى يستحق أن يتعجب منه .

وهذا العجب الذى وصف به الرسول ربه هنا من آثار رحمته وهو من كماله تعالى ، فإذا تأخر الغيث عن العباد مع فقرهم وشدة حاجتهم واستولى عليهم اليأس والقنوط وصار نظرهم قاصراً على الأسباب الظاهرة ، وحسبوا أن لا يكون وراءها فرج من القريب المجيب فيعجب الله منهم .

وهذا محل عجيب حقاً إذ كيف يقنطون ورحمته وسعت كل شيء والأسباب لحصولها قد توفرت ، فإن حاجة العباد وضرورتهم من أسباب رحمته ، وكذا الدعاء بحصول الغيث والرجاء فى الله من أسبابها وقد جرت عادته سبحانه فى خلقه أن الفرج مع الكرب

وقوله ﷺ « لاتزال جهنم يلقى فيها وهى تقول هل من مزيد ؟ حتى يضع رب العزة فيها رجله » وفى رواية « عليها قدمه فينزوى بعضها إلى بعض فتقول قط قط » متفق عليه .

وأن اليسر مع العسر وأن الشدة لا تدوم ، فإذا انضم إلى ذلك قوة التجاء وطمع فى فضل الله ، وتضرع إليه ودعاء ، فتح الله عليهم من خزائن رحمته مالا يخطر على البال .

والقنوط مصدر قنط يقنط وهو اليأس من رحمة الله ، قال تعالى (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) .

قوله: (وقرب خيره) أى فضله ورحمته وقد روى (غيره) والغير اسم من قولك غير الشىء فتغير، وفى حديث الاستسقاء « من يكفر بالله يلق الغير » أى تغير الحال وانتقالها من الصلاح إلى الفساد .

قوله (أزلين قنطين) حالان من الضمير المجرور فى إليكم ، وأزلين جمع أزل اسم فاعل من الأزل بمعنى الشدة والضيق ، يقال أزل الرجل يأزل أزلا من باب فرح أى صار فى ضيق وجدب .

قوله (لاتزال جهنم الخ) فى هذا الحديث إثبات الرجل والقدم لله عز وجل ، وهذه الصفة تجرى مجرى بقية الصفات فنثبت لله على الوجه اللائق بعظمته سبحانه . والحكمة فى وضع رجله سبحانه فى النار أنه قد وعد أن يملأها كما فى قوله تعالى (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) .

وقوله : «يقول تعالى يا آدم فيقول لبيك وسعديك فينادى بصوت إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار» متفق عليه .
وقوله «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه وليس بينه وبينه ترجمان» .

ولما كان مقتضى رحمته وعدله أن لا يعذب أحداً بغير ذنب ، وكانت النار فى غاية العمق والسعة ، حقق وعده تعالى فوضع فيها قدمه ، فحينئذ يتلاقى طرفاها ولا يبقى فيها فضل عن أهلها .

وأما الجنة فإنه يبقى فيها فضل عن أهلها مع كثرة ما أعطاهم وأوسع لهم فينشىء الله لها خلقاً آخرين كما ثبت بذلك الحديث .

قوله (يقول تعالى يا آدم الخ) فى هذين الحديثين إثبات القول والنداء والتكليم لله عز جل ، وقد سبق أن بينا مذهب أهل السنة والجماعة فى ذلك وأنهم يؤمنون بأن هذه صفات أفعال له سبحانه تابعة لمشيئته وحكمته ، فهو قال ويقول ، ونادى وينادى ، وكلم ويكلم ، وأن قوله ونداءه وتكليمه إنما يكون بحروف وأصوات يسمعها من يناديه ويكلمه ، وفى هذا رد على الأشاعرة فى قولهم أن كلامه قديم وأنه بلا حرف ولا صوت .

وقد دل الحديث الثانى على أنه سبحانه سيكلم جميع عباده بلا واسطة ، وهذا تكليم عام ، لأنه تكليم محاسبة فهو يشمل المؤمن والكافر والبر والفاجر ، ولا ينافيه قوله تعالى (ولا يكلمهم الله) لأن المنفى هنا هو التكليم بما يسر المكلم ، وهو تكليم خاص

وقوله فى رقية المريض « ربنا الله الذى فى السماء تقدس اسمك ، أمرك فى السماء والأرض كما رحمتك فى السماء ، اجعل رحمتك فى الأرض ، اغفر لنا حوبنا وخطايانا ، أنت رب الطيبين أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع فيبرأ » حديث حسن رواه أبو داود وغيره — وقوله « ألا تأمنونى وأنا أمين من فى السماء » حديث صحيح .

ويقابله تكليمه سبحانه لأهل الجنة تكليم محبة ورضوان وإحسان .

قوله (ربنا الله الذى فى السماء الخ) الحديث الأول صريح فى علوه تعالى وفوقيته فهو كقوله تعالى (أأمنتم من فى السماء) وقد سبق أن قلنا إن هذه النصوص ليس المراد منها أن السماء ظرف حاو له سبحانه ، بل (فى) إما أن تكون بمعنى على كما قاله كثير من أهل العلم واللغة .

و (فى) تكون بمعنى على فى مواضع كثيرة مثل قوله تعالى (لأصلبنكم فى جذوع النخل) وإما أن يكون المراد من السماء جهة العلو ، وعلى الوجهين فهى نص فى علوه تعالى على خلقه .

وفى حديث الرقية المذكور توسل إلى الله عز وجل بالثناء عليه بربوبيته وإلاهيته وتقديس اسمه وعلوه على خلقه وعموم أمره الشرعى وأمره القدرى ، ثم توسل إليه برحمته التى شملت أهل سمواته جميعاً أن يجعل لأهل الأرض نصيباً منها ، ثم توسل إليه

وقوله «والعرش فوق الماء والله فوق العرش ، وهو يعلم ما أنتم عليه » حديث حسن رواه أبو داود وغيره .

وقوله للجارية « أين الله ؟ قالت فى السماء ، قال من أنا ؟ قالت أنت رسول الله ، قال اعتقها فإنها مؤمنة » رواه مسلم .

بسؤال مغفرة الحوب وهو الذنب العظيم ، ثم الخطايا التى هى دونه ، ثم توسل إليه بربوبيته الخاصة للطيبين من عباده وهم الأنبياء وأتباعهم التى كان من آثارها أن غمرهم بنعم الدين والدنيا الظاهرة والباطنة .

فهذه الوسائل المتنوعة إلى الله لا يكاد يرد دعاء من توسل بها ، ولهذا دعا الله بعدها بالشفاء الذى هو شفاء الله الذى لا يدع مرضاً إلا أزاله ولا تعلق فيه لغير الله .

فهل يفقه هذا عباد القبور من المتوسلين بالذوات والأشخاص والحق والجاه والحرمة ونحو ذلك .

وأما الحديث الثانى فقد تضمن شهادة الرسول ﷺ بالإيمان للجارية التى اعترفت بعلوه تعالى على خلقه ، فدل ذلك على أن وصف العلو من أعظم أوصاف البارى جل شأنه حيث خصه بالسؤال عنه دون بقية الأوصاف ، ودل أيضاً على أن الإيمان بعلوه المطلق من كل وجه هو من أعظم أصول الإيمان ، فمن أنكره فقد حرم الإيمان الصحيح .

وقوله « أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت »
حديث حسن — وقوله « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصقن
قبل وجهه ولا عن يمينه ، فإن الله قبل وجهه ، ولكن عن يساره
أو تحت قدمه » متفق عليه .

والعجب من هؤلاء الحمق من المعطلة النفاة زعمهم أنهم أعلم
بالله من رسوله ، فينفون عنه الأين بعدما وقع هذا اللفظ بعينه
من الرسول مرة سائلا غيره ، كما فى هذا الحديث ، ومرة مجيباً
لمن سأله بقوله أين كان ربنا » .

وأما قوله (والعرش فوق الماء الخ) ففيه الجمع بين الإيمان
بعلوه تعالى على عرشه وبإحاطة علمه بالموجودات كلها ، فسبحان
من هو عليّ فى دنوه ، قريب فى علوه .

قوله (أفضل الإيمان أن تعلم الخ) دلالة على أن أفضل الإيمان
هو مقام الإحسان والمراقبة ، وهو أن يعبد العبد ربه كأنه يراه
ويشاهده ، ويعلم أن الله معه حيث كان ، فلا يتكلم ولا يفعل
ولا يخوض فى أمر ما إلا والله رقيب مطلع عليه ، قال تعالى
(وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل
إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه) .

ولا شك أن هذه المعية إذا استحضرها العبد فى كل أحواله فإنه
يستحى من الله عز وجل أن يراه حيث نهاه أو أن يفتقده حيث

وقوله ﷺ «اللهم رب السموات السبع و الأرض ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، فالق الحب والنوى ، منزل التوراة والإنجيل والقرآن ، أعوذ بك من شر نفسي ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عني الدين وأغنني من الفقر » رواية مسلم .

أمره فتكون عوناً له على اجتناب ما حرم الله والمسارعة إلى فعل ما أمر به من الطاعات على وجه الكمال ظاهراً وباطناً ، ولاسيما إذا دخل في الصلاة التي هي أعظم صلة ومناجاة بين العبد وربه ، فيخشع قلبه ويستحضر عظمة الله وجلاله ، فتقل حركاته ولا يسيء الأدب مع ربه بالبصق أمامه أو عن يمينه .

قوله (إذا قام أحدكم إلى الصلاة الخ) دل على أن الله عز وجل يكون قبل وجه المصلي .

قال شيخ الإسلام في العقيدة الحموية : إن الحديث حق على ظاهره وهو سبحانه فوق العرش ، وهو قبل وجه المصلي ، بل هذا الوصف يثبت للمخلوق ، فإن الإنسان لو أنه يناجي السماء أو يناجي الشمس والقمر لكانت السماء والشمس والقمر فوقه ، وكانت أيضاً قبل وجهه .

قوله (اللهم رب السموات الخ) تضمن الحديث إثبات أسمائه

وقوله ﷺ لما رفع الصحابة أصواتهم بالذكر « أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لاتدعون أصم ولا غائباً . إنما تدعون سميعاً بصيراً قريباً ، إن الذى تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » متفق عليه .

تعالى الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهى من الأسماء الحسنى . وقد فسرها النبى ﷺ بما لايدع مجالا لقائل ، فهو أعلم الخلق جميعاً بأسماء ربه وبالمعانى التى تدل عليها ، فلا يصح أن يلتفت إلى قول غيره أيا كان .

وفى الحديث أيضاً يعلمنا نبينا صلوات الله وسلامه عليه وآله كيف نثنى على ربنا عز وجل قبل السؤال ، فهو يثنى عليه بربوبيته العامة التى انتظمت كل شىء ، ثم بربوبيته الخاصة الممثلة فى إنزاله هذه الكتب الثلاثة تحمل الهدى والنور إلى عباده ، ثم يعوذ ويعتصم به سبحانه من شر نفسه ومن شر كل ذى شر من خلقه ، ثم يسأله فى آخر الحديث أن يقضى عنه دينه وأن يغنيه من فقر ، قوله (أيها الناس أربعوا على أنفسكم الخ) أفاد هذا الحديث قربه سبحانه من عباده ، وأنه ليس بحاجة إلى أن يرفعوا إليه أصواتهم فإنه يعلم السر والنجوى ، وهذا القرب المذكور فى الحديث قرب إحاطة وعلم وسمع ورؤية فلا ينافى علوه على خلقه .

« إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لاتضامون فى رؤيته ، فإن استطعتم أن لاتغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا » متفق عليه .

هذا الحديث الصحيح المتواتر يشهد لما دلت عليه الآيات السابقة من رؤية المؤمنين لله عز وجل فى الجنة وتمتعهم بالنظر إلى وجهه الكريم ، وهذه النصوص من الآيات والأحاديث تدل على أمرين :

أولهما : علوه تعالى عن خلقه لأنها صريحة فى أنهم يرونه من فوقهم .

ثانيها : إن أعظم أنواع النعيم هو النظر إلى وجه الله الكريم .

وقوله (كما ترون القمر ليلة البدر) المراد تشبيه الرؤية بالرؤية لاتشبيه المرئى بالمرئى ، يعنى أن رؤيتهم لربهم تكون من الظهور والوضوح كرؤية القمر فى أكمل حالاته ، وهى كونه بدراً ولا يحجبه سحاب ، ولهذا قال بعد ذلك (لاتضامون فى رؤيته) روى بتشديد الميم من التضام بمعنى التزاحم والتلاصق ، والتاء يجوز فيها الضم والفتح ، على أن الأصل تتضامون فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً ، وروى بتخفيف الميم من الضيم بمعنى الظلم ، يعنى لايلحقكم فى رؤيته ضيم ولاغبن .

وفى حثه ﷺ فى هذا الحديث على صلاة العصر وصلاة الفجر خاصة إشارة إلى أن من حافظ عليهما فى جماعة نال هذا النعيم الكامل الذى يضمحل بإزائه كل نعيم ، وهو يدل على تأكد هاتين

« إلى أمثال هذه الأحاديث التي يخبر فيها رسول الله ﷺ عن ربه بما يخبر به ، فإن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل ، بل هم الوسط في فرق الأمة ، كما أن الأمة هي الوسط في الأمم .

الصلاتين كما دل على ذلك الحديث الآخر « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر » متفق عليه .

قوله (إلى أمثال هذه الأحاديث الخ) لما كان ما ذكره المؤلف من الأحاديث ليس هو كل ما ورد في باب الصفات من الأخبار ، نبه على أن أمثال هذه الأحاديث التي ذكرها مما يخبر فيه الرسول ﷺ عن ربه بما يخبر به ، فإن حكمه كذلك وهو وجوب الإيمان بما يتضمنه من أسماء الله وصفاته ، ثم عاد فأكد معتقد أهل السنة والجماعة ، وهو أنهم يؤمنون بما وردت به السنة الصحيحة من صفات كإيمانهم بما أخبر الله في كتابه من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل

ثم أخبر عن أهل السنة والجماعة بأنهم وسط بين فرق الضلال والزيغ من هذه الأمة ، كما أن هذه الأمة وسط بين الأمم السابقة قال تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس

« فهم وسط فى باب صفات الله سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة » .

ويكون الرسول عليكم شهيدا) ومعنى وسطاً عدولا خياراً كما ورد الحديث بذلك .

فهذه الأمة وسط بين الأمم التى تجنح إلى الغلو الضار والأمم التى تميل إلى التفريط المهلك ، فإن من الأمم من غلا فى المخلوقين وجعل لهم من صفات الخالق وحقوقه ما جعل ، كالنصارى الذين غلوا فى المسيح والرهبان . ومنهم من جفا الأنبياء وأتباعهم حتى قتلهم ورد دعوتهم كاليهود الذين قتلوا زكريا ويحيى وحاولوا قتل المسيح ورموه بالبهتان ، وأما هذه الأمة فقد آمنت بكل رسول أرسله الله واعتقدت رسالتهم وعرفت لهم مقاماتهم الرفيعة التى فضلهم الله بها .

ومن الأمم أيضاً من استحلت كل خبيث وطيب ، ومنها من حرم الطيبات غلواً ومجاوزة . وأما هذه الأمة فقد أحل الله لها الطيبات وحرم عليها الخبائث ؛ إلى غير ذلك من الأمور التى من الله على هذه الأمة الكاملة بالتوسط فيها .

فكذلك أهل السنة والجماعة متوسطون بين فرق الأمة المبتدعة التى انحرفت عن الصراط المستقيم .

قوله (فهم وسط فى باب صفات الله الخ) يعنى أن أهل السنة والجماعة وسط فى باب الصفات بين من ينفيها ويعطل الذات العلية عنها

ويحرف ما ورد فيها من الآيات والأحاديث عن معانيها الصحيحة إلى ما يعتقده هو من معان بلا دليل صحيح ولا عقل صريح ، كقولهم رحمة الله إرادته الإحسان ، ويده قدرته ، وعينه حفظه ورعايته ، واستواؤه على العرش استيلاؤه ، إلى أمثال ذلك من أنواع النفي والتعطيل التي أوقعهم فيها سوء ظنهم بربهم وتوهمهم أن قيام هذه الصفات به لا يعقل إلا على النحو الموجود في قيامها بالمخلوق .

ولقد أحسن القائل حيث يقول :

وقصارى أمر من أول أن ظنوا الظنونا

فيقولون على الرحمن مالا يعلمونا

وإنما سمي أهل التعطيل جهمية نسبة إلى الجهم بن صفوان الترمذي رأس الفتنة والضلال وقد توسع في هذا اللفظ حتى أصبح يطلق على كل من نفى شيئاً من الأسماء والصفات ، فهو شامل لجميع فرق النفاة من فلاسفة ومعتزلة وأشعرية وقرامطة باطنية .

فأهل السنة والجماعة وسط بين هؤلاء الجهمية النفاة وبين أهل التمثيل المشبهة الذين شبهوا الله بخلقه ومثلوه بعباده ، وقد رد الله على الطائفتين بقوله (ليس كمثله شيء) فهذا يرد على المشبهة ، وقوله (وهو السميع البصير) يرد على المعطلة .

وأما أهل الحق فهم الذين يثبتون الصفات لله تعالى إثباتاً بلا

« وهم وسط فى باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية وغيرهم »

تمثيل ، وينزهونه عن مشابهة المخلوقات تنزيهاً بلا تعطيل ، فجمعوا أحسن ما عند الفريقين ، أعنى التنزيه والإثبات ، وتركوا ما أخطأوا وأساءوا فيه من التعطيل والتشبيه .

قوله (وهم وسط الخ) قال الشيخ العلامة محمد بن عبد العزيز ابن مانع فى تعليقه على هذه العبارة ما نصه :

اعلم أن الناس اختلفوا فى أفعال العباد هل هى مقدورة للرب أم لا ؟ فقال جهم وأتباعه وهم الجبرية : إن ذلك الفعل مقدور للرب لا للعبد وكذلك قال الأشعرى وأتباعه إن المؤثر فى المقدور قدرة الرب دون قدرة العبد . وقال جمهور المعتزلة وهم القدرية ، أى نفاة القدر : إن الرب لا يقدر على عين مقدور العبد . واختلفوا هل يقدر على مثل مقدوره ، فأثبته البصريون كأبى على وأبى هاشم ، ونفاه الكعبى وأتباعه البغداديون .

وقال أهل الحق : أفعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة وهى مخلوقة لله تعالى ، والحق سبحانه منفرد بخلق المخلوقات لا خالق لها سواه ، فالجبرية غلوا فى إثبات القدر فنفوا فعل العبد أصلا . والمعتزلة نفاة القدر جعلوا العباد خالقين مع الله ولهذا كانوا مجوس هذه الأمة . وهدى الله المؤمنين أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، فقالوا العباد

فاعلون والله خالقهم وخالق أفعالهم كما قال تعالى (والله خلقكم وما تعملون) وإنما نقلنا هذه العبارة بنصها لأنها تلخيص جيد لمذاهب المتكلمين فى القدر وأفعال العباد .

قوله (وفى باب وعيد الله الخ) يعنى أن أهل السنة والجماعة وسط فى باب الوعيد بين المفرطين من المرجئة الذين قالوا لا يضر مع الإيمان ذنب كما لا تنفع مع الكفر طاعة . وزعموا أن الإيمان مجرد التصديق بالقلب وإن لم ينطق به . وسموا بذلك نسبة إلى الإرجاء ، أى التأخير لأنهم أخروا الأعمال عن الإيمان .

ولا شك أن الإرجاء بهذا المعنى كفر يخرج صاحبه عن الملة ، فإنه لابد فى الإيمان من قول باللسان ، واعتقاد بالجنان ، وعمل بالأركان ، فإذا اختل واحد منها لم يكن الرجل مؤمنا .

وأما الإرجاء الذى نسب إلى بعض الأئمة من أهل الكوفة كأبى حنيفة وغيره ، وهو قولهم إن الأعمال ليست من الإيمان ، ولكنهم مع ذلك يوافقون أهل السنة على أن الله يعذب من يعذب من أهل الكبائر بالنار ، ثم يخرجهم منها بالشفاعة وغيرها ، وعلى أنه لابد فى الإيمان من نطق باللسان ، وعلى أن الأعمال المفروضة واجبة يستحق تركها الذم والعقاب ، فهذا النوع من الإرجاء ليس

« وفى باب أسماء الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية »

كفراً وإن كان قولا باطلا مبتدعاً لإخراجهم الأعمال عن الإيمان .

وأما الوعيدية فهم القائلون بأن الله يجب عليه عقلا أن يعذب العاصى كما يجب عليه أن يثيب المطيع ، فمن مات على كبيرة ولم يتب منها لا يجوز عندهم أن يغفر الله له ، ومذهبهم باطل مخالف للكتاب والسنة ، قال تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) وقد استفاضت الأحاديث فى خروج عصاة الموحدين من النار ودخولهم الجنة .

فمذهب أهل السنة والجماعة وسط بين نفاة الوعيد من المرجئة وبين موجبيه من القدرية ، فمن مات على كبيرة عندهم فأمره مفوض إلى الله إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه كما دلت عليه الآية السابقة . وإذا عاقبه بها فإنه لا يخلد خلود الكفار بل يخرج من النار ويدخل الجنة .

قوله (وفى باب أسماء الإيمان الخ) كانت مسألة الأسماء والأحكام من أول ما وقع فيه النزاع فى الإسلام بين الطوائف المختلفة وكان للأحداث السياسية والحروب التى جرت بين على ومعاوية رضى الله عنهما فى ذلك الحين وما ترتب عليها من ظهور الخوارج والرافضة والقدرية أثر كبير فى ذلك النزاع. والمراد بالأسماء هنا أسماء الدين

مثل مؤمن ومسلم وكافر وفاسق الخ ، والمراد بالاحكام أحكام أصحابها فى الدنيا والآخرة .

فالخوارج الحرورية والمعتزلة ذهبوا إلى أنه لايستحق اسم الإيمان إلا من صدق بجنانه وأقر بلسانه وقام بجميع الواجبات واجتنب جميع الكبائر، فمرتكب الكبيرة عندهم لا يسمى مؤمناً باتفاق بين الفريقين ، ولكنهم اختلفوا هل يسمى كافراً أو لا . فالخوارج يسمونه كافراً ويستحلون دمه وماله ، ولهذا كفروا علياً ومعاوية وأصحابهما واستحلوا منهم مايستحلون من الكفار .

وأما المعتزلة فقالوا إن مرتكب الكبيرة خرج من الإيمان ولم يدخل فى الكفر فهو بمنزلة بين المنزلتين ، وهذا أحد الأصول التى قام عليها مذهب الاعتزال .

واتفق الفريقان أيضاً على أن من مات على كبيرة ولم يتب منها فهو مخلد فى النار ، فوقع الاتفاق بينهما فى أمرين :

١ — نفى الإيمان عن مرتكب الكبيرة .

٢ — خلوده فى النار مع الكفار . ووقع الخلاف أيضاً فى موضعين أحدهما تسميته كافراً والثانى استحلال دمه وماله وهو الحكم الدنيوى . وأما المرجئة فقد سبق بيان مذهبهم ، وهو أنه لايضر مع الإيمان معصية ، فمرتكب الكبيرة عندهم مؤمن كامل الإيمان ولايستحق دخول النار .

فمذهب أهل السنة والجماعة وسط بين هذين المذهبين فمرتكب الكبيرة عندهم مؤمن ناقص الإيمان ، قد نقص من إيمانه بقدر ما ارتكب من معصية فلا ينفون عنه الإيمان أصلا كالخوارج والمعتزلة ولا يقولون بأنه كامل الإيمان كالمرجئة الجهمية ، وحكمه فى الآخرة عندهم أنه قد يعفو الله عز وجل عنه فيدخل الجنة ابتداء أو يعذبه بقدر معصيته ثم يخرجه ويدخله الجنة كما سبق ، وهذا الحكم أيضاً وسط بين من يقول بخلوده فى النار وبين من يقول إنه لا يستحق على المعصية عقاباً .

قوله (وفى أصحاب رسول الله الخ) المعروف أن الرافضة قبحهم الله يسبون الصحابة رضى الله عنهم ويلعنونهم وربما كفروهم أو كفروا بعضهم والغالبية منهم مع سبهم لكثير من الصحابة والخلفاء يغلون فى على وأولاده ويعتقدون فيهم الإلهية ، وقد ظهر هؤلاء فى حياة على رضى الله عنه بزعامة عبد الله بن سبأ الذى كان يهودياً وأسلم وأراد أن يكيد للإسلام وأهله كما كاد اليهود من قبل للنصرانية وأفسدوها على أهلها ، وقد حرقهم على بالنار لإطفاء فتنتهم ، وروى عنه فى ذلك قوله :

لما رأيت الأمر أمراً منكرا   أججت نارى ودعوت قنبرا

وأما الخوارج فقد قابلوا هؤلاء الروافض فكفروا علياً ومعاوية

(فصـــل)

وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله الإيمان بما أخبر الله به في كتابه وتواتر عن رسوله وأجمع عليه سلف الأمة من أنه سبحانه فوق سماواته على عرشه بائن على خلقه ، وهو سبحانه معهم أينما كانوا يعلم ماهم عاملون كما جمع بين ذلك في قوله (هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم مايلج في الأرض ومايخرج منها وماينزل من السماء ومايعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) .

ومن معهما من الصحابة وقاتلوهم واستحلوا دماءهم وأموالهم .

وأما أهل السنة والجماعة فكانوا وسطاً بين غلو هؤلاء وتقصير أولئك وهداهم الله إلى الاعتراف بفضل أصحاب نبيهم وأنهم كمل هذه الأمة إيماناً وإسلاماً وعلماً وحكمة ، ولكنهم لم يغلوا فيهم ولم يعتقدوا عصمتهم ، بل قاموا بحقوقهم وأحبوهم لعظيم سابقتهم وحسن بلائهم في نصرة الإسلام وجهادهم مع رسول الله ﷺ .

قوله (وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان الخ) صرح المؤلف هنا بمسألة علو الله تعالى واستوائه على عرشه بائناً من خلقه كما أخبر الله عن ذلك في كتابه وكما تواتر الخبر بذلك عن رسوله وكما أجمع عليه سلف الأمة الذين هم أكملها علماً وإيماناً ، مؤكداً بذلك ماسبق أن ذكره في هذا الصدد ومشدداً النكير على من أنكر ذلك من الجهمية

وليس معنى قوله « وهو معكم » أنه مختلط بالخلق فإن هذا لا توجبه اللغة ، بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته ، وهو موضوع فى السماء ، وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان .

وهو سبحانه فوق عرشه رقيب على خلقه مهيمن عليهم مطلع عليهم إلى غير ذلك من معانى ربوبيته ، وكل هذا الكلام الذى ذكره الله — من أنه فوق العرش وأنه معنا — حق على حقيقته لا يحتاج إلى تحريف ، ولكن يصان عن الظنون الكاذبة مثل أن يظن أن ظاهر قوله (فى السماء) أن السماء تظله أو تقله ، وهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان ، فإن الله قد وسع كرسيه السموات والأرض وهو يمسك السموات والأرض أن تزولا ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره .

والمعتزلة ومن تبعهم من الأشاعرة . ثم بين أن استواءه على عرشه لا ينافى معيته وقربه من خلقه ، فإن المعية ليس معناها الاختلاط والمجاورة الحسية ، وضرب لذلك مثلا بالقمر الذى هو موضوع فى السماء وهو مع المسافر وغيره أينما كان بظهوره واتصال نوره فإذا جاز هذا بالنسبة للقمر وهو من أصغر مخلوقات الله أفلا يجوز بالنسبة إلى اللطيف الخبير الذى أحاط بعباده علما وقدرة والذى هو شهيد مطلع عليهم يسمعهم ويراهم ويعلم سرهم ونجواهم ، بل العالم كله

(فصـــل)

وقد دخل فى ذلك الإيمان بأنه قريب مجيب كما جمع بين ذلك فى قوله (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب) الآية ـ وقوله ﷺ « إن الذى تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » وما ذكر فى الكتاب والسنة من قربه ومعيته ، لاينافى ما ذكر من علوه وفوقيته فإنه سبحانه ليس كمثله شىء فى جميع نعوته ، وهو علىّ فى دنوه قريب فى علوه .

سمواته وأرضه من العرش إلى الفرش كله بين يديه سبحانه كأنه بندقة فى يد أحدنا ، أفلا يجوز لمن هذا شأنه أن يقال إنه مع خلقه مع كونه عالياً عليهم بائناً منهم فوق عرشه ؟ بلى يجب الإيمان بكل من علوه تعالى ومعيته ، واعتقاد أن ذلك كله حق على حقيقته من غير أن يساء فهم ذلك أو يحمل على معان فاسدة كأن يفهم من قوله (وهو معكم) معية الاختلاط والامتزاج كما يزعمه الحلولية ، أو يفهم من قوله (فى السماء) أن السماء ظرف حاو له محيطة به . كيف وقد وسع كرسيه السموات والأرض جميعاً ؟ وهو الذى يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، فسبحان من لا يبلغه وهم الواهمين ولا تدركه أفهام العالمين .

قوله (وقد دخل فى ذلك الإيمان الخ) يجب الإيمان بما وصف الله به نفسه من أنه قريب مجيب ، فهو سبحانه قريب ممن يدعوه ويناجيه ، يسمع دعاءه ونجواه ويجيب دعاءه متى شاء وكيف شاء

ومن الإيمان بالله وكتبه الإيمان بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، منه بدا وإليه يعود ، وأن الله تكلم به حقيقة ، وأن هذا القرآن الذى أنزله على محمد ﷺ هو كلام الله حقيقة لا كلام غيره

فهو تعالى قريب قرب العلم والإحاطة كما قال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) .

وبهذا يتبين أنه لا منافاة أصلا بين ماذكر فى الكتاب والسنة من قربه تعالى ومعيته وبين مافيها من علوه تعالى وفوقيته ، فهذه كلها نعوت له على مايليق به سبحانه ليس كمثله شىء فى شىء منها .

قوله (ومن الإيمان بالله وكتبه الخ) جعل المصنف الإيمان بأن القرآن كلام الله داخلا فى الإيمان بالله لأنه صفة من صفاته ، فلا يتم الإيمان به سبحانه إلا بها ، إذ الكلام لا يكون إلا صفة للمتكلم والله سبحانه موصوف بأنه متكلم بما شاء متى شاء ، وأنه لم يزل ولا يزال يتكلم بمعنى أن نوع كلامه قديم وإن كانت آحاده لا تزال تقع شيئاً بعد شىء بحسب حكمته .

وقد قلنا فيما سبق أن الإضافة فى قولنا «القرآن كلام الله» هى من إضافة الصفة للموصوف فتفيد أن القرآن صفة الرب سبحانه وأنه تكلم به حقيقة بألفاظه ومعانيه بصوت نفسه فمن زعم أن القرآن مخلوق من المعتزلة فقد أعظم الفرية على الله ونفى كلام الله عن الله وصفا وجعله

ولا يجوز إطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله أو عبارة بل إذا قرأه الناس أو كتبوه فى المصاحف لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله تعالى حقيقة ، فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئاً لا إلى من قاله مبلغاً مؤدياً ، وهو كلام الله حروفه ومعانيه ، ليس كلام الله الحروف دون المعانى ولا المعانى دون الحروف .

وصفاً لمخلوق وكان أيضاً متجنياً على اللغة فليس فيها متكلم بمعنى خالق للكلام . ومن زعم أن القرآن الموجود بيننا حكاية عن كلام الله كما تقوله الكلابية أو أنه عبارة عنه كما تقوله الأشعرية ، فقد قال بنصف قول المعتزلة حيث فرق بين الألفاظ والمعانى ، فجعل الألفاظ مخلوقة والمعانى عبارة عن الصفة القديمة ، كما أنه ضاهى النصارى فى قولهم بحلول اللاهوت وهو الكلمة فى الناسوت وهو جسد عيسى عليه السلام ، إذ قال بحلول المعانى التى هى الصفة القديمة فى هذه الألفاظ المخلوقة ، فجعل الألفاظ ناسوتاً لها .

والقرآن كلام الله حيث تصرف ، فمهما كتبناه فى المصاحف أو تلوناه بالألسنة لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله ، لأن الكلام كما قال المصنف إنما يضاف إلى من قاله مبتدئاً لا إلى من قاله مبلغاً مؤدياً .

وأما معنى قول السلف (منه بدا وإليه يعود) فهو من البدء يعنى أن الله هو الذى تكلم به ابتداءً لم يبتدأ من غيره ، ويحتمل

وقد دخل أيضاً فيما ذكرناه من الإيمان به وبكتبه وبملائكته وبرسله : الإيمان بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة عياناً بأبصارهم كما يرون الشمس صحواً ليس بها سحاب ، وكما يرون القمر ليلة البدر لايضامون فى رؤيته ، يرونه سبحانه وهم فى عرصات القيامة ، ثم يرونه بعد دخول الجنة كما يشاء الله تعالى .

أن يكون من البدر بمعنى الظهور ، يعنى أنه هو الذى تكلم به وظهر منه لم يظهر من غيره ، ومعنى إليه يعود أى يرجع إليه وصفاً ، لأنه وصفه القائم به ، وقيل معناه يعود إليه فى آخر الزمان حين يرفع من المصاحف والصدور ، كما ورد فى أشراط الساعة .

وأما كون الإيمان بأن القرآن كلام الله داخلا فى الإيمان بالكتب فإن الإيمان بها إيماناً صحيحاً يقتضى إيمان العبد بأن الله تكلم بها بألفاظها ومعانيها ، وأنها جميعاً كلامه هو لا كلام غيره ، فهو الذى تكلم بالتوراة بالعبرانية ، وبالإنجيل بالسريانية ، وبالقرآن بلسان عربى مبين .

قوله (وقد دخل أيضاً فيما ذكرناه الخ) تقدم الكلام على رؤية المؤمنين لربهم عز وجل فى الجنة كما دلت على ذلك الآيات والأحاديث الصريحة ، فلاحاجة بنا إلى إعاده الكلام فيها .

غير أن قوله يرونه سبحانه وهم فى عرصات القيامة قد يوهم أن هذه الرؤية أيضاً خاصة بالمؤمنين ولكن الحق أنها عامة لجميع

(فصـــل)

ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ماأخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت فيؤمنون بفتنة القبر وبعذاب القبر ونعيمه .
فأما الفتنة فإن الناس يمتحنون فى قبورهم ، فيقال للرجل : من ربك وما دينك ومانبيك ؟ فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، فيقول المؤمن ربى الله والإسلام ، دينى ومحمد ﷺ نبيي . وأما المرتاب فيقول هاه هاه لا أدرى سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته ، فيضرب بمرزبة من حـــديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان ، ولو سمعها الإنسان لصعق — ثم بعد هذه الفتنة إما نعيم وإما عذاب إلى أن تقوم القيامة الكبرى فتعاد الأرواح إلى الأجساد .

أهل الموقف حين يجيء الرب لفصل القضاء بينهم كما يدل عليه قوله تعالى « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام » الآية .

والعرصات جمع عرصة وهى كل موضع واسع لابناء فيه .

قوله (ومن الإيمان باليوم الآخر الخ) إذا كان الإيمان باليوم الآخر أحد الأركان الستة التى يقوم عليها الإيمان فإن الإيمان به إيماناً تاماً كاملا لايتحقق إلا إذا آمن العبد بكل ماأخبر به النبى ﷺ من أمور الغيب التى تكون بعد الموت والضابط فى ذلك أنها أمور ممكنة أخبر بها الصادق صلوات الله عليه وسلامه وآله وكل ممكن

أخبر به الصادق يجب الإيمان بوقوعه كما أخبر ، فإن هذه الأمور لاتستفاد إلا من خبر الرسول - فأهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك كله .

وأما أهل المروق والإلحاد من الفلاسفة والمعتزلة فينكرون هذه الأمور من سؤال القبر ومن نعيم القبر وعذابه والصراط والميزان وغير ذلك بدعوى أنها لم تثبت بالعقل ، والعقل عندهم هو الحاكم الأول الذى لايجوز الإيمان بشىء إلا عن طريقه ، وهم يردون الأحاديث الواردة فى هذه الأمور بدعوى أنها أحاديث آحاد لاتقبل فى باب الاعتقاد وأما الآيات فيأولونها بما يصرفها عن معانيها .

والإضافة فى قوله (بفتنة القبر) على معنى فى أى بالفتنة التى تكون فى القبر وأصل الفتنة وضع الذهب ونحوه على النار لتخليصه من الأوضار والعناصر الغريبة ، ثم استعملت فى الأخبار والامتحان وأما عذاب القبر ونعيمه فيدل عليه قوله تعالى فى حق آل فرعون (النار يعرضون عليها غدواً وعشياً) وقوله سبحانه عن قوم نوح (مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً) .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار »

والمرزبة بالتخفيف المطرقة الكبيرة ، ويقال لها أيضاً إرزبة بالهمزة والتشديد .

وتقوم القيامة التى أخبر الله بها فى كتابه وعلى لسان رسوله وأجمع عليها المسلمون ، فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلا وتدنو منهم الشمس ويلجمهم العرق ، فتنصب الموازين فتوزن بها أعمال العباد .

قوله (وتقوم القيامة الخ) يعنى القيامة الكبرى وهذا الوصف للتخصص احترز به عن القيامة الصغرى التى تكون عند الموت كما فى الخبر «من مات فقد قامت قيامته» وذلك أن الله عز وجل إذا أذن بانقضاء هذه الدنيا أمر إسرافيل عليه السلام أن ينفخ فى الصور النفخة الاولى فيصعق كل من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، وتصبح الأرض صعيداً جرزا ، والجبال كثيباً مهيلا ، ويحدث كل ما أخبر الله به فى كتابه لاسيما فى سورتى التكوير والانفطار ، وهذا هو آخر أيام الدنيا ، ثم يأمر الله السماء فتمطر مطراً كمنى الرجال أربعين يوماً فينبت منه الناس فى قبورهم من عجب أذنابهم وكل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب حتى إذا تم خلقهم وتركيبهم أمر الله إسرافيل بأن ينفخ فى الصور النفخة الثانية فيقوم الناس من الأجداث أحياء فيقول الكفار والمنافقون حينئذ (يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا) ويقول المؤمنون (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون)[1] ثم تحشرهم الملائكة إلى الموقف حفاة غير منتعلين عراة غير مكتسين غرلا غير مختتنين جمع أغرل وهو

(١) ويؤيد ذلك قوله تعالى « وقال الذين أوتوا العلم والإيمان » الآية .

فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون . وتنشر الدواوين ، وهى صحائف الأعمال — فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره ، كما قال سبحانه وتعالى (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً)

الأقلف ، والغرلة القلفة ، وأول من يكتسى يوم القيامة إبراهيم كما فى الحديث . وهناك فى الموقف تدنو الشمس من رؤوس الخلائق ويلجمهم العرق ، فمنهم من يبلغ كعبيه ، ومنهم من يبلغ ركبتيه ، ومنهم من يبلغ ثدييه ومنهم من يبلغ ترقوته كل على قدر عمله ، ويكون أناس فى ظل الله عز وجل ، فإذا اشتد بهم الأمر وعظم الكرب استشفعوا إلى الله عز وجل بالرسل والأنبياء أن ينقذهم عما هم فيه ، وكل رسول يحيلهم على من بعده حتى يأتوا نبينا ﷺ فيقول : أنا لها ويشفع فيهم فينصرفون إلى فصل القضاء وهناك تنصب الموازين فتوزن بها أعمال العباد وهى موازين حقيقية كل ميزان منها له لسان وكفتان ويقلب الله أعمال العباد (وهى أعراض) أجساماً لها ثقل فتوضع الحسنات فى كفة والسيئات فى كفه كما قال تعالى (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) .

ويحاسب الله الخلائق ويخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه ، كما

ثم تنشر الدواوين وهى صحائف الأعمال فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً ، وأما من أوتى كتابه بشماله أو من وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً ويصلى سعيراً ويقول ياليتنى لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه . قال تعالى (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً) .

وأما قوله تعالى (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه) فقد قال الراغب أى عمله الذى طار عنه من خير وشر ولكن الظاهر أن المراد بالطائر هنا نصيبه فى هذه الدنيا وما كتب له فيها من رزق وعمل كما فى قوله تعالى (أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب) يعنى ما كتب عليهم فيه .

قوله (ويحاسب الله الخلائق الخ) المراد بتلك المحاسبة تذكيرهم وإنباؤهم بما قدموه من خير وشر أحصاه الله ونسوه قال تعالى : ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون . وفى الحديث الصحيح «من نوقش الحساب عذب» فقالت عائشة رضى الله عنها : يارسول الله أو ليس الله يقول (فسوف يحاسب حساباً يسيراً) ؟ فقال : إنما ذلك العرض ، ولكن من نوقش الحساب يهلك .

وصف ذلك فى الكتاب والسنة ، وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته فإنه لاحسنات لهم ولكن تعد أعمالهم فتحصى فيوقفون عليها ويقررون بها .

وفى عرصات القيامة الحوض المورود للنبي ﷺ ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، آنيته عدد نجوم السماء ، طوله شهر وعرضه شهر ، من يشرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً .

وأما قوله (ويخلو بعبده المؤمن) فقد ورد عن ابن عمر رضى الله عنهما أن الله عز وجل يدنى منه عبده المؤمن فيضع عليه كنفه ويحاسبه فيما بينه وبينه ويقرره بذنوبه ، فيقول : ألم تعمل كذا يوم كذا ، ألم تفعل كذا يوم كذا حتى إذا قرره بذنوبه وأيقن أنه قد هلك قال له : سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم .

وأما قوله (فإنه لاحسنات لهم) يعنى الكفار لقوله تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) وقوله (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لايقدرون مما كسبوا على شيء) والصحيح أعمال الخير التى يعملها الكافر يجازى بها فى الدنيا فقط حتى إذا جاء يوم القيامة وجد صحيفة حسناته بيضاء وقيل يخفف بها عنه من عذاب غير الكفر .

وأما قوله (فى عرصات القيامة) فإن الأحاديث الواردة فى ذكر الحوض تبلغ حد التواتر رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابياً

،ـو الصراط منصوب على متن جهنم وهو الجسر الذى بين الجنة
والنار يمر الناس على قدر أعمالهم فنهم من يمر كلمح البصر ، ومنهم
من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كالفرس
الجواد ، ومنهم من يمر كركاب الإبل ، ومنهم من يعدو عدواً ،
ومنهم من يمشى مشياً ، ومنهم من يزحف زحفاً ومنهم من يخطف
خطفاً ويلقى فى جهنم فإن الجسر عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم
فمن مر على الصراط دخل الجنة ، فإذا عبروا عليه وقفوا على قنطرة
بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض ، فاذا هذبوا ونقوا
أذن لهم فى دخول الجنة .

فمن أنكره فأخلق به أن يحال بينه وبين وروده يوم العطش الأكبر
وقد ورد فى أحاديث : إن لكل نبى حوضاً ولكن حوض نبينا
ﷺ أعظمها وأحلاها وأكثرها وارداً جعلنا الله منهم بفضله كرمه .

قوله (والصراط منصوب الخ) أصل الصراط الطريق الواسع
قيل سمى بذلك لانه يسترط السابلة ، أى يبتلعهم إذا سلكوه ، وقد
يستعمل فى الطريق المعنوى كما فى قوله تعالى (وأن هذا صراطى
مستقيما فاتبعوه) .

والصراط الأخروى الذى هو الجسر الممدود على ظهر جهنم بين
الجنة والنار حق لاريب فيه لورود خبر الصادق به ومن استقام
على صراط الله الذى هو دينه الحق فى الدنيا استقام على هذا الصراط

وأول من يستفتح باب الجنة محمد ﷺ ، وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته ، وله ﷺ فى القيامة ثلاث شفاعات : أما الشفاعة الأولى فيشفع فى أهل الموقف حتى يقضى بينهم بعد أن يتراجع الأنبياء ؛ آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم عن الشفاعة حتى تنتهى إليه .

فى الآخرة وقد ورد فى وصفه أنه أرق من الشعرة وأحد من السيف .

قوله (وأول من يستفتح باب الجنة محمد ﷺ) يعنى أول من يحرك حلقها طالباً أن يفتح له بابها كما قال عليه السلام « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر ، وأنا أول من يحرك حلق الجنة فأدخلها ويدخلها معى فقراء أمتى » يعنى بعد دخول الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام يكون فقراء هذه الأمة أول الناس دخولا الجنة .

وأما قوله (وله ﷺ فى القيامة ثلاث شفاعات) فأصل الشفاعة من قولنا : شفع كذا بكذا إذا ضمه إليه ، وسمى الشافع شافعاً لأنه يضم طلبه ورجاءه إلى طلب المشفوع له .

والشفاعة من الأمور التى ثبتت بالكتاب والسنة ، وأحاديثها متواترة قال تعالى (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) فنفى الشفاعة بلا إذن إثبات للشفاعة من بعد الإذن قال تعالى عن الملائكة (وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله

وأما الشفاعة الثانية فيشفع فى أهل الجنة أن يدخلوا الجنة ، وهاتان الشفاعتان خاصتان له .

وأما الشفاعة الثالثة فيشفع فيمن استحق النار ، وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم ، فيشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها ، ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها .

لمن يشاء ويرضى) فبين الله الشفاعة الصحيحة وهى التى تكون بإذنه ولمن يرضى قوله وعمله .

وأما مايتمسك به الخوارج والمعتزلة فى نفى الشفاعة من مثل قوله تعالى (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) (ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة — فمالنا من شافعين) الخ . فإن الشفاعة المنفية هنا هى الشفاعة فى أهل الشرك . وكذلك الشفاعة الشركية التى يثبتها المشركون لأصنامهم ويثبتها النصارى للمسيح والرهبان ، وهى التى تكون بغير إذن الله ورضاه .

وأما قوله (أما الشفاعة الأولى فيشفع فى أهل الموقف حتى يقضى بينهم) فهذه هى الشفاعة العظمى وهى المقام المحمود الذى يغبطه به النبيون والذى وعده الله أن يبعثه إياه بقوله (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محمودا) يعنى يحمده عليه أهل الموقف جميعاً وقد أمرنا نبينا ﷺ إذا سمعنا النداء أن نقول بعد الصلاة عليه «اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه

ويخرج الله من النار أقواماً بغير شفاعة بل بفضله ورحمته ، ويبقى في الجنة فضل عمن دخلها من أهل الدنيا ، فينشيء الله لها أقواماً فيدخلهم الجنة .

وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة من الحساب والثواب والعقاب

مقاماً محمـــوداً الذي وعدته . وأما قوله (وأما الشفاعة الثانية فيشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة) يعني أنهم وقد استحقوا دخول الجنة لا يؤذن لهم بدخولها إلا بعد شفاعة .

وأما قوله (وهاتان الشفاعتان خاصتان له) يعني الشفاعة في أهل الموقف والشفاعة في أهل الجنة أن يدخلوها ، وتنضم إليهما ثالثة وهي شفاعته في تخفيف العذاب عن بعض المشركين كما في شفاعته لعمه أبي طالب فيكون في ضحضاح من نار . كما ورد بذلك الحديث

وأما قوله (وأما الشفاعة الثالثة فيشفع في من استحق النار) وهذه هي الشفاعة التي ينكرها الخوارج والمعتزلة ، فإن مذهبهم أن من استحق النار لابد أن يدخلها ومن دخلها لا يخرج منها لا بشفاعة ولا بغيرها والأحاديث المستفيضة المتواترة ترد على زعمهم وتبطله .

وأما قوله (وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة من الحساب الخ) فاعلم أن أصل الجزاء على الأعمال خيرها وشرها ثابت بالعقل كما هو ثابت بالسمع ، وقد نبه الله العقول إلى ذلك في مواضع كثيرة من كتابه مثل قوله تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) فإنه لا يليق في حكمة الحكيم أن

والجنة والنار وتفاصيل ذلك مذكورة فى الكتب المنزلة من السماء والآثار من العلم المأثور عن الأنبياء . وفى العلم الموروث عن محمد ﷺ من ذلك ما يشفى ويكفى فمن ابتغاه وجده .

« وتؤمن الفرقة الناجية من أهل السنة والجماعة بالقدر خيره وشره والإيمان بالقدر على درجتين كل درجة تتضمن شيئين .

فالدرجة الأولى الإيمان بأن الله تعالى عليم بالخلق وهم عاملون بعلمه القديم الذى هو موصوف به أزلا وأبداً وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصى والأرزاق والآجال ثم كتب الله فى اللوح المحفوظ مقادير الخلق فأول ما خلق الله القلم قال له اكتب قال ما أكتب؟ قال

يترك الناس سدى مهملين ، لا يؤمرون ولا ينهون ، ولا يثابون ولا يعاقبون ، كما لا يليق بعدله وحكمته أن يسوى بين المؤمن والكافر والبر والفاجر كما قال تعالى (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) فإن العقول الصحيحة تأبى ذلك وتنكره أشد الإنكار .

وكذلك نبههم الله على ذلك بما أوقعه من أيامه فى الدنيا من إكرام الطائعين ، وخذلان الطاغين ، وأما تفاصيل الأجزية ومقاديرها فلا يدرك إلا بالسمع ، والنقول الصحيحة عن المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله .

اكتب ماهو كائن إلى يوم القيامة . فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه جفت الأقلام وطويت الصحف كما قال

والإيمان بالقدر خيره وشره من الله تبارك وتعالى أحد الأركان الستة التي يدور عليها فلك الإيمان كما دل عليه حديث جبريل وغيره وكما دلت عليه الآيات الصريحة من كتاب الله عز وجل .

وقد ذكر المؤلف هنا أن الإيمان بالقدر على درجتين وأن كلا منهما تتضمن شيئين ؛ فالدرجة الأولى تتضمن أولا الإيمان بعلمه القديم المحيط بجميع الأشياء وأنه تعالى علم بهذا العلم القديم الموصوف به أزلا وأبداً كل ماسيعمله الخلق فيما لا يزال وعلم به جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال . فكل مايوجد من أعيان وأوصاف ويقع من أفعال وأحداث فهو مطابق لما علمه الله عز وجل أزلا

ثانياً أن الله كتب ذلك كله وسجله فى اللوح المحفوظ ، فما علم الله كونه ووقوعه من مقادير الخلائق وأصناف الموجودات وما يتبع ذلك من الأحوال والأوصاف والأفعال ودقيق الأمور وجليلها قد أمر القلم بكتابته كما قال ﷺ قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء ، وكما قال فى الحديث الذى ذكره المؤلف أن أول ماخلق الله القلم قال له اكتب قال وما أكتب قال اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة .

تعالى (ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير) وقال (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير) وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون فى مواضع جملة وتفصيلا فقد كتب فى اللوح المحفوظ ما شاء ، وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه بعث إليه ملكا فيؤمر بأربع كلمات فيقال له اكتب

وأول هنا بالنصب على الظرفية والعامل فيه قال أى له ذلك أول ما خلقه وقد روى بالرفع على أنه مبتدأ خبره القلم ولهذا اختلف العلماء فى العرش والقلم أيهما خلق أولا . وحكى العلامة ابن القيم فى ذلك قولين واختار أن العرش مخلوق قبل القلم ، قال فى النونية :

والناس مختلفون فى القلم الذى كتب القضاء به من الديان
هل كان قبل العرش أو هو بعده قولان عند أبى العلا الهمدانى
والحق أن العرش قبل لأنه وقت الكتابة كان ذا أركان
وكتابة القلم الشريف تعقبت إيجاده من غير فصل زمان

وإذا كان القلم قد جرى بكل ما هو كائن إلى يوم القيامة فكل ما يقع من كائنات وأحداث فهو مطابق لما كتب فيه ، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه كما جاء فى حديث ابن عباس رضى الله عنهما وغيره .

وهذا التقدير التابع للعلم القديم تارة يكون جملة كما فى اللوح

رزقه وأجله وعمله وشقى أم سعيد ونحو ذلك فهذا التقدير قد كان ينكره غلاة القدرية قديماً ومنكروه اليوم قليل .

وأما الدرجة الثانية : فهى مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه مافى السموات ومافى الأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه لا يكون فى ملكه مالا يريد . وأنه سبحانه على كل شىء قدير من الموجودات والمعدومات ، فما من مخلوق فى الأرض ولا فى السماء إلا الله خالقه سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه . ومع ذلك فقد

المحفوظ فإن فيه مقادير كل شىء ، ويكون فى مواضع تفصيلا يخص كل فرد كما فى الكلمات الأربع التى يؤمر الملك بكتابتها عند نفخ الروح فى الجنين يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أم سعيد فهذا تقدير خاص وهذا التقدير السابق على وجود الأشياء قد كان ينكره غلاة القدرية قديماً مثل معبد الجهنى وغيلان الدمشقى وكانوا يقولون إن الأمر أنف . ومنكر هذه الدرجة من القدر كافر لأنه أنكر معلوماً من الدين بالضرورة قد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع .

قوله : وأما الدرجة الثانية من القدر الخ فهى تتضمن شيئين أيضاً أولهما الإيمان بعموم مشيئته تعالى وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وأنه لايقع فى ملكه ما لايريد وأن أفعال العباد من الطاعات والمعاصى واقعة بتلك المشيئة العامة التى لايخرج عنها

أمر العباد طاعته وطاعة رسله ونهاهم عن معصيته . وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا يحب الكافرين ولا يرضى عن القوم الفاسقين ، ولا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر ولا يحب الفساد .

كائن سواء كان مما يحبه الله ويرضاه أم لا ، وثانيهما الإيمان بأن جميع الأشياء واقعة بقدرة الله تعالى وأنها مخلوقة له لا خالق لها سواه ، لا فرق فى ذلك بين أفعال العباد وغيرها ، كما قال تعالى (والله خلقكم وما تعملون) .

ويجب الإيمان بالأمر الشرعى ، وأن الله تعالى كلف العباد فأمرهم بطاعته وطاعة رسله ونهاهم عن معصيته ولامنافاة أصلا بين ماثبت من عموم مشيئته سبحانه لجميع الأشياء وبين تكليفه العباد بماشاء من أمر ونهى ، فإن تلك المشيئة لاتنافى حرية العبد واختياره للفعل ولهذا جمع الله بين المشيئتين بقوله (لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين) .

كما أنه لاتلازم بين تلك المشيئة وبين الأمر الشرعى المتعلق بما يحبه الله ويرضاه ، فقد يشاء الله مالايحبه ويحب ما لايشاء كونه (فالأول) كمشيئته وجود إبليس وجنوده (والثانى) كمحبة إيمان الكفار وطاعات الفجار وعدل الظالمين وتوبة الفاسقين ولو شاء ذلك لوجد كله ، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

وكذلك لا منافاة بين عموم خلقه تعالى لجميع الأشياء وبين كون العبد فاعلا لفعله ، فالعبد هو الذي يوصف بفعله فهو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلي والصائم ، والله خالقه وخالق فعله لأنه هو الذي خلق فيه القدرة والإرادة اللتين بهما يفعل .

يقول العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي غفر الله له وأجزل مثوبته :

إن العبد إذا صلى وصام وفعل الخير أوعمل شيئاً من المعاصي كان هو الفاعل لذلك العمل الصالح ، وذلك العمل السيء . وفعله المذكور بلا ريب قد وقع باختياره وهو يحس ضرورة أنه غير مجبور على الفعل أو الترك وأنه لو شاء لم يفعل وكان هذا هو الواقع فهو الذي نص الله عليه في كتابه ونص عليه رسوله حيث أضاف الأعمال صالحها وسيئها إلى العباد وأخبر أنهم الفاعلون لها وأنهم ممدوحون عليها إن كانت صالحة ومثابون ، وملومون عليها إن كانت سيئة ومعاقبون عليها .

فقد تبين واتضح بلا ريب أنها واقعة منهم باختيارهم وأنهم إذا شاءوا فعلوا وإذا شاءوا تركوا ، وأن هذا الأمر ثابت عقلا وحساً وشرعاً ومشاهدة .

ومع ذلك إذا أردت أن تعرف أنها وإن كانت كذلك واقعة

والكافر والبر والفاجر والمصلي والصائم وللعباد قدرة على أعمالهم ولهم إرادة والله خالقهم وقدرتهم وإرادتهم كما قال تعالى (لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين)

منهم كيف تكون داخلة في القدر وكيف تشملها المشيئة؟ فيقال بأى شيء وقعت هذه الأعمال الصادرة من العباد خيرها وشرها؟ فيقال بقدرتهم وإرادتهم ، هذا يعترف به كل أحد ، فيقال : ومن خلق قدرتهم وإرادتهم ومشيئتهم ؟ فالجواب الذى يعترف به كل أحد أن الله هو الذى خلق قدرتهم وإرادتهم ، والذى خلق ما به تقع الأفعال هو الخالق للأفعال فهذا هو الذى يحل الإشكال ويتمكن العبد أن يعقل بقلبه اجتماع القدر والقضاء والاختيار ، ومع ذلك فهو تعالى أمد المؤمنين بأسباب وألطاف وإعانات متنوعة وصرف عنهم الموانع كما قال ﷺ (أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة) وكذلك خذل الفاسقين ووكلهم إلى أنفسهم لأنهم لم يؤمنوا به ولم يتوكلوا عليه فولاهم ما تولوا لأنفسهم .اهـ)

وخلاصة مذهب أهل السنة والجماعة فى القدر وأفعال العباد ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة من أن الله سبحانه هو الخالق لكل شيء من الأعيان والأوصاف والأفعال وغيرها وأن مشيئته تعالى عامة شاملة لجميع الكائنات فلا يقع منها شيء إلا بتلك المشيئة وأن خلقه سبحانه الأشياء بمشيئته إنما يكون وفقاً لما علمه منها بعلمه

وهذه الدرجة من القدر يكذب بها عامة القدرية الذين سماهم النبي ﷺ مجوس هذه الأمة ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات حتى سلبوا العبد قدرته واختياره ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها .

"تقسيم ، ولما كتبه وقدره فى اللوح المحفوظ وأن للعباد قدرة وإرادة تقع بها أفعالهم وأنهم الفاعلون حقيقة لهذه الأفعال بمحض اختيارهم وأنهم لهذا يستحقون عليها الجزاء إما بالمدح والمثوبة وإما بالذم والعقوبة وأن نسبة هذه الأفعال إلى العباد فعلا لاينافى نسبتها إلى الله إيجاداً وخلقاً لأنه هو الخالق لجميع الأسباب التى وقعت بها .

وضل فى القدر طائفتان كما تقدم (الطائفة الأولى) القدرية نفاة القدر الذين هم مجوس هذه الأمة كما ورد ذلك فى بعض الأحاديث مرفوعاً وموقوفاً وهؤلاء ضلوا بالتفريط وإنكار القدر وزعموا أنه لا يمكن الجمع بين ماهو ثابت بالضرورة من اختيار العبد فى فعله ومسئوليته عنه ، وبين مادلت عليه النصوص من عموم خلقه تعالى مشيئته لأن ذلك العموم فى زعمهم إبطال لمسئولية العبد عن فعله وهدم للتكاليف فرجحوا جانب الأمر والنهى وخصصوا النصوص الدالة على عموم الخلق والمشيئة بما عدا أفعال العباد وأثبتوا أن العبد خالق لفعله بقدرته وإرادته ، فأثبتوا خالقين غير الله ولهذا سموا مجوس هذه الأمة ، لأن المجوس يزعمون أن الشيطان يخلق

(فصـــل)

ومن أصول أهل السنة والجماعة أن الدين والإيمان قول وعمل قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر كما يفعله الخوارج بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي.

الشر والأشياء المؤذية، فجعلوه خالقاً مع الله، فكذلك هؤلاء جعلوا العباد خالقين مع الله.

(والطائفة الثانية) يقال لها الجبرية وهؤلاء غلوا فى إثبات القدر حتى أنكروا أن يكون للعبد فعل حقيقة بل هو فى زعمهم لا حرية له ولا اختيار ولا فعل كالريشة فى مهب الرياح وإنما تسند الأفعال إليه مجازاً فيقال صلى وصام وقتل وسرق كما يقال طلعت الشمس وجرت الريح ونزل المطر. فاتهموا ربهم بالظلم وتكليف العباد بما لا قدرة لهم عليه، ومجازاتهم على ما ليس من فعلهم، واتهموه بالعبث فى تكليف العباد وأبطلوا الحكمة من الأمر والنهى ألا ساء ما يحكمون.

سبق أن ذكرنا فى مسألة الأسماء والأحكام أن أهل السنة والجماعة يعتقدون أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان وأن هذه الثلاثة داخلة فى مسمى الإيمان المطلق. فالإيمان المطلق يدخل فيه جميع الدين ظاهره وباطنه أصوله وفروعه، فلا يستحق اسم الإيمان المطلق إلا مع جمع ذلك كله ولم ينقص منه شيئاً.

كما قال سبحانه (فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف) وقال (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى . فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين)

ولما كانت الأعمال والأقوال داخلة فى مسمى الإيمان كان الإيمان قابلا للزيادة والنقص ، فهو يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية كما هو صريح الأدلة من الكتاب والسنة وكما هو ظاهر مشاهد من تفاوت المؤمنين فى عقائدهم وأعمال قلوبهم وأعمال جوارحهم .

ومن الأدلة على زيادة الإيمان ونقصه أن الله قسم المؤمنين ثلاث طبقات فقال سبحانه (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) فالسابقون بالخيرات هم الذين أدوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات وهؤلاء هم المقربون . والمقتصدون هم الذين اقتصروا على أداء الواجبات وترك المحرمات . والظالمون لأنفسهم هم الذين اجترأوا على بعض المحرمات وقصروا ببعض الواجبات مع بقاء أصل الإيمان معهم .

ومن وجوه زيادته ونقصه كذلك أن المؤمنين متفاوتون فى علوم الإيمان فمنهم من وصل إليه من تفاصيله وعقائده خير كثير فازداد به إيمانه وتم يقينه ومنهم من هو دون ذلك حتى يبلغ الحال ببعضهم أنه

(إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم) ولا يسلبون الفاسق الملى الإسلام بالكلية ولا يخلدونه فى النار كما تقول المعتزلة بل الفاسق يدخل فى اسم الإيمان المطلق كما فى قوله (فتحرير رقبة مؤمنة) وقد

لا يكون معه إلا إيمان إجمالى لم يتيسر له من التفاصيل شىء ، وهو مع ذلك مؤمن . وكذلك هم متفاوتون فى كثير من أعمال القلوب والجوارح وكثرة الطاعات وقلتها .

وأما من ذهب إلى أن الإيمان بجرد التصديق بالقلب وأنه غير قابل للزيادة أو النقص كما يروى عن أبى حنيفة وغيره فهو محجوج بما ذكرنا من الأدلة قال عليه السلام (الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق) ومع أن الإيمان المطلق مركب من الأقوال والأعمال والاعتقادات فهى ليست كلها بدرجة واحدة ، بل العقائد أصل فى الإيمان فمن أنكر شيئاً مما يجب اعتقاده فى الله أو ملائكته أو كتبه أو رسله أو اليوم الآخر أو ما هو معلوم من الدين بالضرورة كوجوب الصلاة والزكاة وحرمة الزنا والقتل الخ فهو كافر قد خرج من الإيمان بهذا الإنكار .

وأما الفاسق الملى الذى يرتكب بعض الكبائر مع اعتقاده حرمتها فأهل السنة والجماعة لا يسلبون عنه اسم الإيمان بالكلية ولا يخلدونه فى النار كما تقول المعتزلة والخوارج بل هو عندهم مؤمن ناقص الإيمان قد نقص من إيمانه بقدر معصيته أو هو مؤمن فاسق فلا يعطونه اسم

لا يدخل فى اسم الإيمان المطلق كما فى قوله تعالى (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) وقوله ﷺ (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن) .

ونقول هو مؤمن ناقص الإيمان ، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ، فلا يعطى الاسم المطلق ولا يسلب مطلق الاسم .

الإيمان المطلق ولا يسلبونه مطلق الإيمان .

وأدلة الكتاب والسنة دالة على ماذكره المؤلف رحمه الله من ثبوت مطلق الإيمان مع المعصية قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء) فناداهم باسم الإيمان مع وجود المعصية وهى موالاة الكفار منهم الخ

﴿ فائدة ﴾ الإيمان والإسلام الشرعيان متلازمان فى الوجود فلا يوجد أحدهما بدون الآخر بل كلما وجد إيمان صحيح معتد به وجد معه إسلام وكذلك العكس ولهذا قد يستغنى بذكر أحدهما عن الآخر لأن أحدهما إذا أفرد بالذكر دخل فيه الآخر وأما إذا ذكرا معاً مقترنين أريد بالإيمان التصديق والاعتقاد وأريد بالإسلام الانقياد الظاهرى من الإقرار باللسان وعمل الجوارح . ولكن هذا بالنسبة إلى مطلق الإيمان أما الإيمان المطلق فهو أخص مطلقاً من الإسلام وقد يوجد الإسلام بدونه كما فى قوله تعالى (قالت الأعراب

(فصـــل)

« ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ كما وصفهم الله به فى قوله تعالى (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم) وطاعة

آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) فأخبر بإسلامهم مع نفى الإيمان عنهم . وفى حديث جبريل ذكر المراتب الثلاث الإسلام. والإيمان والإحسان فدل على أن كلا منها أخص مما قبله .

يقول المؤلف إن من أصول أهل السنة والجماعة التى فارقوا بها من عداهم من أهل الزيغ والضلال أنهم لايزرون بأحد من أصحاب رسول الله ﷺ ولا يطعنون عليه ولايحملون له حقداً ولا بغضاً ولا احتقاراً فقلوبهم وألسنتهم من ذلك كله براء ولا يقولون فيهم إلا ماحكاه الله عنهم بقوله (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان) الآية . فهذا الدعاء الصادر ممن جاء بعدهم ممن اتبعوهم بإحسان يدل على كمال محبتهم لأصحاب رسول الله وثنائهم عليهم وهم أهل لذلك الحب والتكريم لفضلهم وسبقهم وعظيم سابقتهم واختصاصهم بالرسول ﷺ ولإحسانهم إلى جميع الأمة. لأنهم هم المبلغون لهم جميع ماجاء به نبيهم فما وصل لأحد علم ولا خبر إلا بواسطتهم وهم يوقرونهم أيضاً طاعة للنبى ﷺ حيث نهى عن سبهم والغض منهم ، وبين أن العمل القليل من أحد أصحابه يفضل العمل الكثير من غيرهم وذلك لكمال إخلاصهم وصادق إيمانهم.

النبي ﷺ فى قوله (لا تسبوا أصحابي فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً مابلغ مد أحدهم ولا نصيفه) ويقبلون ماجاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم ويفضلون من أنفق من قبل الفتح وهو صلح الحديبية وقاتل على من أنفق من بعد وقاتل، ويقدمون المهاجرين على الأنصار ويؤمنون بأن الله قال

وأما قوله (ويفضلون من أنفق من قبل الفتح ـ وهو صلح الحديبية ـ وقاتل على من أنفق من بعده وقاتل) فلورود النص القرآنى بذلك قال تعالى فى سورة الحديد (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى) وأما تفسير الفتح بصلح الحديبية فذلك هو المشهور وقد صح أن سورة الفتح نزلت عقيبه . وسمى هذا الصلح فتحاً لما ترتب عليه من نتائج بعيدة المدى فى عزة الإسلام وقوته وانتشاره ودخول الناس فيه .

وأما قوله (ويقدمون المهاجرين على الأنصار) فلأن المهاجرين جمعوا الوصفين النصرة والهجرة ، ولهذا كان الخلفاء الراشدون وبقية العشرة من المهاجرين وقد جاء القرآن بتقديم المهاجرين على الأنصار فى سورة التوبة والحشر وهذا التفضيل إنما هو للجملة على الجملة فلا ينافى أن فى الأنصار من هو أفضل من بعض المهاجرين .

وقد روى عن أبى بكر أنه قال فى خطبته يوم السقيفة (نحن المهاجرون وأول الناس إسلاماً أسلمنا قبلكم وقدمنا فى القرآن عليكم

لأهل بدر وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر « اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم » وبأنه لايدخل النار أحد بايع تحت الشجرة كما أخبر به النبي ﷺ . بل لقد رضى الله عنهم ورضوا عنه وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله ﷺ كالعشرة وثابت ابن قيس بن شماس وغيرهم من الصحابة .

ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وغيره من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ويثلثون بعثمان ويربعون بعلى رضى الله عنهم كما دلت عليه الآثار وكما أجمع ـ

فنحن الأمراء وأنتم الوزراء) .

وأما قوله (ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر الخ) فقد ورد أن عمر رضى الله عنه لما أراد قتل حاطب بن أبى بلتعة وكان قد شهد بدراً لكتابته كتاباً إلى قريش يخبرهم فيه بمسير الرسول ﷺ فقال له الرسول « وما يدريك ياعمر لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم » .

وأما قوله « وبأنه لايدخل النار أحد بايع تحت الشجرة الخ » فلإخباره ﷺ بذلك ولقوله تعالى « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة » الآية . فهذا الرضى مانع من إرادة تعذيبهم ومستلزم لإكرامهم ومثوبتهم .

وأما قوله ويشهدون بالجنة لمن شهد له الرسول ﷺ كالعشرة

الصحابة على تقديم عثمان فى البيعة مع أن بعض أهل السنة كانوا قد اختلفوا فى عثمان وعلى رضى الله عنهما - بعد اتفاقهم على تقديم أبى بكر وعمر - أيهما أفضل ؟ فقدم قوم عثمان وسكتوا وربعوا بعلى وقدم قوم -

---

وثابت بن قيس بن شماس وغيرهم من الصحابة) أما العشرة فهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح ، وأما غيرهم فكثابت بن قيس وعكاشة بن محصن وعبد الله بن سلام وكل من ورد الخبر الصحيح بأنه من أهل الجنة .

وأما قوله (ويؤمنون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين على ابن أبى طالب وغيره من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر فقد ورد أن علياً رضى الله عنه قال ذلك على منبر الكوفة وسمعه منه الجم الغفير وكان يقول (ما مات رسول الله ﷺ حتى علمنا أن أفضلنا بعده أبو بكر وما مات أبو بكر حتى علمنا أن أفضلنا بعده عمر) .

وأما قوله (ويثلثون بعثمان ويربعون بعلى الخ) فمذهب جمهور أهل السنة أن ترتيب الخلفاء الراشدين فى الفضل على حسب ترتيبهم فى الخلافة وهم لهذا يفضلون عثمان على علىّ محتجين بتقديم الصحابة عثمان فى البيعة على علىّ وبعض أهل السنة يفضل علياً لأنه يرى أن ما ورد من الآثار فى مزايا علىّ ومناقبه اكثر . وبعضهم يتوقف فى ذلك وعلى كل حال فمسألة التفضيل ليست كما قال المؤلف من مسائل

علياً وقوم توقفوا ، لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان ثم علي ، وإن كانت هذه المسألة ـ مسألة عثمان وعلي ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة لكن التي يضلل فيها مسألة الخلافة ، وذلك أنه يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر ثم عثمان ثم علي ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء فهو أضل من حمار أهله .

ويحبون أهل بيت رسول الله ﷺ ويتولونهم ويحفظون فيهم وصية رسول الله حيث قال يوم غدير خم (أذكركم الله في أهل بيتي)

الأصول التي يضال فيها المخالف وإنما هي مسألة فرعية يتسع لها الخلاف ، وأما مسألة الخلافة فيجب الاعتقاد بأن خلافة عثمان كانت صحيحة لأنها كانت بمشورة من الستة الذين عينهم عمر رضي الله عنه ليختاروا الخليفة من بعده ، فمن زعم أن خلافة عثمان كانت باطلة وأن علياً كان أحق بالخلافة منه فهو مبتدع ضال يغلب عليه التشيع مع ما في قوله من إزراء بالمهاجرين والأنصار .

أهل بيته ﷺ هم من تحرم عليهم الصدقة وهم آل علي وآل جعفر وآل عقيل وآل العباس وكلهم من بني هاشم ويلحق بهم بنو المطلب لقوله عليه السلام (إنهم لم يفارقونا جاهلية ولا إسلاماً) فأهل السنة والجماعة يرعون لهم حرمتهم وقرابتهم من رسول الله ﷺ كما يحبونهم لإسلامهم وسبقهم وحسن بلائهم في نصرة دين الله عز وجل

وقال أيضاً للعباس عمه . وقد اشتكى إليه أن بعض قريش يجفو بنى هاشم ـ فقال (والذى نفسى بيده لايؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتى) وقال (إن الله اصطفى بنى إسماعيل واصطفى من بنى إسماعيل كنانة واصطفى من كنانة قريشاً واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم) .

ويتولون أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين ويؤمنون بأنهن أزواجه فى الآخرة خصوصاً خديجة رضى الله عنها أم أكثر أولاده وأول من آمن به وعاضده على أمره وكان لها منه المنزلة العالية ،

وغدير خم بضم الخاء ، قيل اسم رجل صباغ أضيف إليه الغدير الذى بين مكة والمدينة بالجحفة . وقيل خم اسم غيضة هناك نسب إليها الغدير ، والغيضة الشجر الملتف .

وأما قوله عليه السلام لعمه (والذى نفسى بيده لايؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتى) فمعناه لايتم إيمان أحد حتى يحب أهل بيت رسول الله ﷺ لله أولا لأنهم من أوليائه وأهل طاعته الذين تجب محبتهم وموالاتهم فيه وثانياً لمكانهم من رسول الله ﷺ واتصال نسبهم به

أزواجه ﷺ هن من تزوجهن بنكاح فأولهن خديجة بنت خويلد رضى الله عنها تزوجها بمكة قبل البعثة وكانت سنه خمساً وعشرين وكانت هى تكبره بخمسة عشرة عاماً ولم يتزوج عليها حتى توفيت وقد رزق منها بكل أولاده إلا إبراهيم وكانت أول من آمن به وقواه على

والصديقة بنت الصديق رضى الله عنها التى قال فيها النبى ﷺ : (فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام) .

ويتبرؤون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل ويمسكون عما شجر بين الصحابة ويقولون إن هذه الآثار المروية فى مساويهم منها ماهو كاذب ومنها ماقد زيد فيه ونقص وغير عن وجهه والصحيح منه هم فيه معذورون إما مجتهدون مصيبون وإما

احتمال أعباء الرسالة وقد ماتت قبل الهجرة بثلاث سنين عن خمس وستين سنة فتزوج بعدها سودة بنت زمعة وعقد على عائشة رضى الله عنها وكانت بنت ست سنين حتى إذا هاجر إلى المدينة بنى بها وهى بنت تسع . ومن زوجاته أيضاً أم سلمة رضى الله عنها تزوجها بعد زوجها أبى سلمة وزينب بنت جحش تزوجها بعد تطليق زيد ابن حارثة لها أو على الأصح زوجه الله إياها . وجويرية بنت الحارث وصفية بنت حيى وحفصة بنت عمر وزينب بنت خزيمة وكلهن أمهات المؤمنين وهن أزواجه ﷺ فى الآخرة وأفضلهن على الإطلاق خديجة وعائشة رضى الله عنهما .

يريد أن أهل السنة والجماعة يتبرؤون من طريقة الروافض التى هى الغلو فى على وأهل بيته وبغض من عداه من كبار الصحابة وسبهم وتكفيرهم . وأول من سماهم بذلك زيد بن على رحمه الله لأنهم لما طلبوا

مجتهدون مخطئون وهم مع ذلك لايعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره ، بل يجوز عليهم الذنوب فى الجملة ولهم من السوابق والفضائل مايوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر حتى إنهم يغفر لهم السيئات مالا يغفر لمن بعدهم لأن لهم من الحسنات التى تمحو السيئات ماليس لمن بعدهم .

وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ أنهم خير القرون وأن المد من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ذهباً ممن بعدهم

منه أن يتبرأ من إمامة الشيخين أبى بكر وعمر ليبايعوه أبى ذلك فتفرقوا عنه فقال رفضتمونى ، فمن يومئذ قيل لهم رافضة . وهم فرق كثيرة منهم الغالية ومنهم دون ذلك .

ويتبرؤون كذلك من طريقة النواصب الذين ناصبوا أهل بيت النبوة العداء لأسباب وأمور سياسية معروفة ولم يعد لهؤلاء وجود الآن .

ويمسك أهل السنة والجماعة عن الخوض فيما وقع من نزاع بين الصحابة رضى الله عنهم لاسيما ماوقع بين على وطلحة والزبير بعد مقتل عثمان وما وقع بعد ذلك بين على ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم ويرون أن الآثار المروية فى مساويهم أكثرها كذب أو محرف عن وجهه ، وأما الصحيح منها فيعذرونهم فيه ويقولون إنهم متأولون مجتهدون ، وهم مع ذلك لايدعون لهم العصمة من كبائر

ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب فيكون قد تاب منه أو أتى بحسنات تمحوه أو غفر له بفضل سابقته أو بشفاعة محمد ﷺ الذى هم أحق الناس بشفاعته أو أبتلى ببلاء فى الدنيا كفر به عنه . فإذا كان هذا فى الذنوب المحققة فكيف الأمور التى كانوا فيها مجتهدين إن أصابوا فلهم أجران وإن أخطأوا فلهم أجر واحد والخطأ مغفور

الذنوب وصغارها ولكن مالهم من السوابق والفضائل وصحبة رسول الله ﷺ والجهاد معه قد يوجب مغفرة مايصدر منهم من زلات فهم بشهادة رسول الله ﷺ خير القرون وأفضلها ومد أحدهم أو نصيفه أفضل من جبل أحد ذهباً يتصدق به من بعدهم فسيئاتهم مغفورة إلى جانب حسناتهم الكثيرة .

يريد المؤلف رحمه الله أن ينفى عن الصحابة رضى الله عنهم أن يكون أحدهم قد مات مصراً على مايوجب سخط الله عليه من الذنوب بل إذا كان قد صدر الذنب من أحدهم فعلا فلا يخلو عن أحد هذه الأمور التى ذكرها فإما أن يكون قد تاب منه قبل الموت أو أتى بحسنات تذهبه وتمحوه أو غفر له بفضل سالفته فى الإسلام كما غفر لأهل بدر وأصحاب الشجرة أو بشفاعة رسول الله ﷺ وهم أسعد الناس بشفاعته وأحقهم بها أو ابتلى ببلاء فى الدنيا فى نفسه أو ماله أو ولده فكفر عنه به . فإذا كان هذا هو مايجب اعتقاده فيهم بالنسبة إلى ماارتكبوه من الذنوب المحققة فكيف فى الأمور التى

ثم إن القدر الذى ينكر من فعل بعضهم قليل نزر مغفور فى جنب فضائل القوم ومحاسنهم من الإيمان بالله ورسوله والجهاد فى سبيله والهجرة والنصرة والعلم النافع والعمل الصالح ، ومن نظر فى سيرة القوم بعلم وبصيرة وما من الله عليهم به من الفضائل علم يقيناً أنهم خير الخلق بعد الأنبياء . لا كان ولا يكون مثلهم ، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التى هى خير الأمم وأكرمها على الله .

ومن أصول أهل السنة التصديق بكرامات الأولياء وما يجرى الله على أيديهم من خوارق العادات .

هى موضع اجتهاد والخطأ فيها مغفور ؛ ثم إذا قيس هذا الذى أخطأوا فيه إلى جنب مالهم من محاسن وفضائل لم يعد أن يكون قطرة فى بحر . فالله الذى اختار نبيه ﷺ هو الذى اختار له هؤلاء الأصحاب ؛ فهم خير الخلق بعد الأنبياء والصفوة المختارة من هذه الأمة التى هى أفضل الأمم .

ومن تأمل كلام المؤلف رحمه الله فى شأن الصحابة عجب أشد العجب مما يرميه به الجهلة المتعصبون وادعائهم عليه أنه يتهجم على أقدارهم ويغض من شأنهم ويخرق إجماعهم إلى آخر ماقالوه من مزاعم ومفتريات .

وقد تواترت نصوص الكتاب والسنة ؛ ودلت الوقائع قديماً وحديثاً على وقوع كرامات لله لأوليائه المتبعين لهدى أنبيائهم ،

فى أنواع العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات والمأثور عن سالف الأمم فى سورة الكهف وغيرها وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر فرق الأمة وهى موجودة فيها إلى يوم القيامة .

والكرامة أمر خارق للعادة يجريه الله على يد ولى من أوليائه معونة له على أمر دينى أو دنيوى ، ويفرق بينهما وبين المعجزة بأن المعجزة تكون مقرونة بدعوى الرسالة بخلاف الكرامة .

ويتضمن وقوع هذه الكرامات حكم ومصالح كثيرة أهمها :

أولا : إنها كالمعجزة تدل أعظم دلالة على كمال قدرة الله ونفوذ مشيئته ، وأنه فعال لما يريد ، وأن له فوق هذه السنن والأسباب المعتادة سنناً أخرى لايقع عليها علم البشر ، ولا تدركها أعمالهم . فمن ذلك قصة أصحاب الكهف ، والنوم الذى أوقعه الله بهم تلك المدة الطويلة مع حفظه تعالى لأبدانهم من التحلل والفناء . ومنها ماأكرم الله به مريم بنت عمران من إيصال الرزق إليها وهى فى المحراب حتى عجب من ذلك زكريا عليه السلام ، وسألها : أنى لك هذا ، وكذلك حملها بعيسى بلا أب وولادتها إياه ، وكلامه فى المهد وغير ذلك .

ثانياً : إن وقوع كرامات الاولياء هو فى الحقيقة معجزة للانبياء ، لأن تلك الكرامات لم تحصل لهم إلا ببركة متابعتهم لأنبيائهم وسيرهم على هديهم .

(فصـــل)

ثم من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع آثار رسول الله ﷺ باطناً وظاهراً واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار واتباع وصية رسول الله ﷺ حيث قال عليكم بسنتي وسنة الخلفاء

ثالثاً : إن كرامات الأولياء هي البشرى التي عجلها الله لهم في الدنيا فإن المراد بالبشرى كل أمر يدل على ولايتهم وحسن عاقبتهم ومن جملة ذلك الكرامات .

هذا ولم تزل الكرامات موجودة لم تنقطع في هذه الأمة إلى يوم القيامة والمشاهدة أكبر دليلا ، وأنكر الفلاسفة كرامات الأولياء كما أنكروا معجزات الأنبياء ، وأنكر الكرامات أيضاً المعتزلة وبعض الأشاعرة بدعوى التباسها بالمعجزة ، وهي دعوى باطلة ، لأن الكرامة كما قلنا لا تقترن بدعوى الرسالة .

لكن يجب التنبه إلى أن ما يقوم به الدجاجلة والمشعوذون من أصحاب الطرق المبتدعة الذين يسمون أنفسهم بالمتصوفة من أعمال ومخاريق شيطانية كدخول النار وضرب أنفسهم بالسلاح والإمساك بالثعابين والإخبار بالغيب إلى غير ذلك ليس من الكرامات في شيء فإن الكرامة إنما تكون لأولياء الله بحق وهؤلاء أولياء الشيطان .

قوله (ثم من طريقة أهل السنة الخ) هذا بيان لمنهج لأهل السنة والجماعة في استنباط الأحكام الدينية كلها ، أصولها وفروعها بعد

الراشدين المهديين من بعدى تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة . ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد ﷺ ويؤثرون كلام الله على غيره من كلام أصناف الناس ، ويقدمون هدى محمد ﷺ على هدى كل أحد ، ولهذا سموا أهل الكتاب والسنة وسموا أهل الجماعة لأن الجماعة هى الإجماع وضدها الفرقة ، وإن كان لفظ الجماعة قد صار اسماً لنفس القوم المجتمعين ، والإجماع هو الأصل الثالث الذى يعتمد عليه فى العلم والدين ، وهم يزنون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من أقوال وأعمال باطنة أو ظاهرة مما له تعلق بالدين والإجماع الذى ينضبط هو ما كان عليه السلف الصالح إذ بعدهم كثر الاختلاف وانتشر فى الأمة .

طريقتهم فى مسائل الأصول - وهذا المنهج يقوم على أصول ثلاثة : أولها — كتاب الله عز وجل الذى هو خير الكلام وأصدقه ، فهم لا يقدمون على كلام الله كلام أحد من الناس . وثانيها — سنة رسول الله ﷺ وما أثر عنه من هدى وطريقة لا يقدمون على ذلك هدى أحد من الناس . وثالثها — ما وقع عليه إجماع الصدر الأول من هذه الأمة قبل التفرق والانتشار وظهور البدعة والمقالات ، وما جاءهم بعد ذلك مما قاله الناس وذهبوا إليه من المقالات وزنوها بهذه الأصول الثلاثة التى هى الكتاب والسنة والإجماع ، فإن وافقها قبلوه وإن

(فصل)

ثم هم مع هذه الأصول يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة ، ويرون إقامة الحج والجهاد والجمع والأعياد مع الأمراء أبراراً كانوا أو فجاراً . ويحافظون على الجماعات ويدينون بالنصيحة للأمة ويعتقدون معنى قوله ﷺ « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » وشبك بين أصابعه . وقوله ﷺ « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » ويأمرون بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمر القضاء ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ويعتقدون معنى قوله ﷺ « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً » ويندبون إلى أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ،

خالفها ردوه أياً كان قائله وهذا هو المنهج الوسط والصراط المستقيم الذى لا يضل سالكه ولا يشقى من اتبعه ، وسط بين من يتلاعب بالنصوص فيتأول الكتاب وينكر الأحاديث الصحيحة ولا يعبأ بإجماع السلف ، وبين من يخبط خبط عشواء فيتقبل كل رأى ويأخذ بكل قول لا يفرق فى ذلك بين غث وسمين وصحيح وسقيم .

قوله (ثم هم مع هذه الأصول الخ) جمع المؤلف فى هذا الفصل جماع مكارم الأخلاق التى يتخلق بها أهل السنة والجماعة من الأمر بالمعروف وهو ما عرف حسنه بالشرع والعقل والنهى عن المنكر

وتعفو عمن ظلمك ، ويأمرون ببر الوالدين وصلة الأرحام وحسن الجوار والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل والرفق بالمملوك وينهون عن الفخر والخيلاء والبغى والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق ويأمرون بمعالى الأخلاق وينهون عن سفسافها وكل مايقولونه ويفعلونه من هذا وغيره فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنة وطريقتهم هي دين الإسلام الذى بعث الله به محمداً ﷺ لكن لما أخبر النبي ﷺ أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة وهى الجماعة . وفى حديث عنه أنه قال « هم من كان على مثل ماأنا عليه اليوم وأصحابى » صار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب ، هم أهل السنة والجماعة ،

وهو كل قبيح عقلا وشرعاً على حسب ماتوجبه الشريعة من تلك الفريضة كما يفهم من قوله عليه السلام « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » ومن شهود الجمع والجماعات والحج والجهاد مع الأمراء أياً كانوا لقوله عليه السلام « صلوا خلف كل بر وفاجر » ومن النصح لكل مسلم لقوله على السلام « الدين النصيحة » ومن فهم صحيح لما توجبه الأخوة الإيمانية من تعاطف وتواد وتناصر كما فى هذه الأحاديث التى يشبه فيها الرسول المؤمنين بالبنيان المرصوص المتماسك اللبنات أو بالجسد المترابط الأعضاء ومن دعوة إلى الخير

وفيهم الصديقون والشهداء والصالحون ، ومنهم أعلام الهدى ومصابيح الدجى أولو المناقب المأثورة والفضائل المذكورة ، وفيهم الأبدال ، وفيهم أئمة الدين الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ، وهم الطائفة المنصورة الذين قال فيهم النبي ﷺ « لاتزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لايضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة » .

نسأل الله أن يجعلنا منهم وأن لايزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا وأن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب ، والله أعلم .

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

وإلى مكارم الأخلاق ، فهم يدعون إلى الصبر على المصائب والشكر على النعماء والرضا بقضاء الله وقدره إلى غير ذلك مما ذكره .

وأما قوله (وفيهم الصديقون الخ) فالصديق صيغة مبالغة من الصدق يراد به الكثير التصديق وأبو بكر رضي الله عنه هو الصديق الاول لهذه الأمة ، وأما الشهداء فهو جمع شهيد وهو من قتل فى المعركة ، وأما الأبدال فهم جمع بدل وهم الذين يخلف بعضهم بعضاً فى تجديد هذا الدين والدفاع عنه كما فى الحديث « يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها أمر دينها » والله أعلم .

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

« تعقيب »

كان من تمام التوفيق أن وكل إلينا أخونا الهمام ـ الغيور على نشر النفائس من عقائد السلف وصحيح السنن ـ الشيخ محمد عبد المحسن : القيام على طبع وتصحيح وإخراج هذه الرسالة ، الصغيرة حجما ، الكبيرة موضوعاً ، الجليلة غاية ومقصدا . . رسالة العقيدة الواسطية . لشيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية رحمه الله تعالى وغفر لنا وله .

ذلك أنها على صغر حجمها ؛ قد حوت من صحيح العقيدة فى الله تعالى وصفاته ، ومن عناصر الفهم السليم لرسالة النبيّ المكرم محمد صلى الله عليه وسلم ـ الشيء الكثير .

وقد كانت رسالة العقيدة الواسطية بالفعل فى حاجة ماسة إلى الكشف عن مكنون نفائسها ، ومستور محاسنها ، وجليل معانيها بمثل قلم الشارح البصير ، العلامة الشيخ محمد خليل هراس . . حيث لم يدع مفهوماً ذهب إليه فى شرحه ، إلا كساه حلة من

البيان ، وأيده ببرهان محكم من التنزيل ، ومن صحيح السنة المطهرة .

جزاه الله الكريم خيراً ، وأحسن إليه كما أحسن .. وجزى أخانا الناشر الموفق بإذن الله ، خير مايجزى به الصالحين المحسنين ، ولسوف تتلو هذه الطبعة الثالثة . . طبعات وطبعات إن شاء الله . . سبحانه هو المستعان .

غرة ذى الحجة سنة ١٣٨٦

عبد الرحمن محمد عثمان

الفهـــــرس

الصفحة | الموضوع

الصفحة | الموضوع

